الباب الثانى

السنة فى عصر الصحابة والتابعين

الفصل الأول:

١- اقتداء الصحابة والتابعين بالرسول ﷺ.

٢- احتياط الصحابة والتابعين وورعهم فى رواية الحديث.

٣- تثبت الصحابة والتابعين فى قبول الحديث.

٤- كيف روى الحديث فى ذلك العصر.. باللفظ أم بالمعنى؟

الفصل الثانى:

١- النشاط العلمى فى عصر الصحابة والتابعين.

٢- انتشار الحديث فى عصر الصحابة والتابعين.

٣- الرحلة فى طلب الحديث.

obeikandi.com

obeikandl.com

الفصل الأول

بين يدى الفصل:

كان مصدر التشريع فى عهد الرسول ﷺ كتاب الله وسنة رسوله: ينزل الوحى، فيبلغه النبى الكريم عليه الصلاة والسلام إلى الناس كافة، ويبين مقاصده، ثم يطبق أحكامه، فكان ﷺ المرجع الأعلى فى جميع أمور الأمة، فى القضاء والفتوى، والتنظيم المالى والسياسى والعسكرى: يعالج الأمور على مرأى من أصحابه رضى الله عنهم، وعلى ضوء القرآن الكريم، فإن وجد حكما للقضية فصل فيها، وإن لم يجد اجتهد فيها حينا، أو انتظر الوحى أحيانًا، ليعرف حكم الله تعالى، وقد يجتهد فينزل الوحى مصححًا لاجتهاده، لأن الله عز وجل لا يقر رسوله على الخطأ.

ثم ما لبث أن انتقل محمد ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وانقطع الوحى. ولم يبق أمام الأمة إلا القرآن العظيم والسنة الشريفة، مصداقًا لقوله ﷺ: «**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتى**»[1]. وتمسك الصحابة والتابعون بسنته عليه الصلاة والسلام اتباعا لأوامر الله تعالى بطاعته وقبول حكمه فى قوله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ [الحشر: ٧]، وقوله: ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [النساء: ٦٥] وقوله: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [آل عمران: ١٣٢].

والاستجابة لرسول الله ﷺ واجبة فى حياته وبعد وفاته. وقد امتثل الصحابة لأوامر الله تعالى فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ونفذوها مخلصين، وحموا الشريعة بالمال والدماء، وكذلك فعلوا بعد وفاته، وقوفًا عند وصيته عليه الصلاة والسلام،

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك، وانظر: جامع بيان العلم وفضله ص ١٨٠ جـ٢.

التى سمعها منه الصحابة رضوان الله عليهم، ويرويها العرباض ابن سارية رضى الله عنه فيقول: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودعٍ، فأوصنا. قال: **أوصيكم بتقوى الله عز وجل، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**[1]» فأخذوا بسنته عليه الصلاة والسلام، وتمسكوا بها، وأبوا أن يكونوا ذلك الرجل الذى ينطبق عليه قوله عليه الصلاة والسلام: «**يوشك الرجل متكئًا على أريكته يحدث بحديث من حديثى فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألا وإن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله**[2]»، بل وقفوا من السنة موقفا عظيما، وردوا على كل من فهم ذاك الفهم. روى أبو نضرة عن عمران بن حصين: «أن رجلا أتاه فسأله عن شيء، فحدثه، فقال الرجل حدثوا عن كتاب الله عز وجل، ولا تحدثوا عن غيره. فقال إنك امرؤ أحمق!! أتجد فى كتاب الله صلاة الظهر أربعًا لا يجهر فيها، وعد الصلوات، وعد الزكاة ونحوها، ثم قال: أتجد هذا مفسرا فى كتاب الله؟ كتاب الله قد أحكم ذلك، والسنة تفسر ذلك[3].»، وقال رجل للتابعى الجليل مطرف بن عبد الله بن الشخير: لا تحدثونا إلا بالقرآن. فقال له مطرف: «والله ما نريد بالقرآن بدلا، ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منا[4]».

وسنستعرض الآن تأسى الصحابة والتابعين بالرسول وتمسكهم بالسنة المطهرة، ثم احتياطهم وورعهم فى رواية السنة، ثم تثبتهم فى قبول الأخبار والآثار عن النبى ﷺ.

---

(١) الحديث الثامن والعشرون من الأربعين النووية ص٦٧ وقال رواه أبو داود والترمذى وقال حديث حسن صحيح. وأقول رواه أيضا الدارمى فى سننه انظر: سنن الدارمى ص٢٦، طبعة سنة ١٣٩٣هـ.

(٢) سنن ابن ماجه ص١٥ جـ١ وسنن البيهقى ص٦ جـ١ رواه المقدام بن معدى كرب.

(٣) كتاب العلم للمقدسى مخطوطة الظاهرية ص٥١ وجامع بيان العلم وفضله ص١٩١ جـ٢.

(٤) جامع بيان العلم وفضله ١٩١ جـ٢.

اقتداء الصحابة والتابعين بالرسول ﷺ

لقد استجاب المسلمون الأوائل إلى قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فتفانوا فى اتباع محمد ﷺ، وساروا على هديه، وهذه صور سريعة عن تمسكهم بالسنة النبوية، تتناول أحوال الرعية والرعاة فى مختلف جوانب الحياة.

فها هو ذا أبو بكر الصديق يعقد لواء أسامة بن زيد، ويأبى أن يحتفظ بجيشه وهو فى أشد الحاجة إليه، ويقول: ما كان لى أن أحل لواء عقده رسول الله ﷺ، ويعقد اللواء لخالد بن الوليد ليقاتل المرتدين، ويقول: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**نعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد، وسيف من سيوف الله سله الله عز وجل على الكفار والمنافقين**[1]».

وتأتيه فاطمة بنت رسول الله ﷺ، تطلب سهم رسول الله عليه الصلاة والسلام، فيقول لها: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله عز وجل إذا أطعم نبياً طعمةً، ثم قبضه جعله للذى يقوم من بعده، فرأيت أن أرده على المسلمين**، فقالت: فأنت وما سمعت من رسول الله ﷺ أعلم[2]» وقال فى رواية: «لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، وإنى أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ»[3].

ولما ارتد مسيلمة الكذاب وقومه قال عمر لأبى بكر رضى الله عنها: «تقاتلهم وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله تعالى**) -؟

---

(١) مسند الامام أحمد ص١٧٣ جـ١ بإسناد صحيح عن أبى بكر.

(٢) مسند الامام أحمد ص١٦٠ جـ١ بإسناد صحيح ونحوه فى ص ١٧٧، ١٧٨ جـ١.

(٣) مسند الإمام أحمد ص ١٦٧ جـ١ بإسناد صحيح من حديث طويل.

فقال أبو بكر: والله لا أفرق بين الصلاة والزكاة، لأقاتلن من فرق بينهما. قال أبو هريرة فقاتلنا معه فرأينا ذلك رشدا[1]».

وعن السائب بن يزيد ابن أخت نمر أن حويطب بن عبد العزى أخبره أن عبد الله بن السعدى أخبره: أنه قدم على عمر بن الخطاب فى خلافته، فقال له عمر ألم أحدث أنك تلى من أعمال الناس أعمالا، فإذا أعطيت العمالة كرهتها؟ قال: فقلت: بلى. فقال عمر: فما تريد إلى ذلك؟ قال: قلت: إن لى أفراسا وأعبدا وأنا بخير، وأريد أن تكون عمالتى صدقة على المسلمين، فقال عمر: فلا تفعل، فإنى قد كنت أردت الذى أردت، فكان النبى ﷺ يعطينى العطاء فأقول: أعطه أفقر إليه منى، حتى أعطانى مرةً مالاً فقلت: أعطه أفقر إليه منى، قال: فقال له النبى ﷺ: «**خذه فتموله وتصدق به، فما جاءك من هذا المال، وأنت غير مشرفٍ ولا سائل فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك**[2]».

وعن فروخ مولى عثمان: أن عمر ـ وهو يومئذ أمير المؤمنين ـ خرج إلى المسجد، فرأى طعامًا منثورًا، فقال: ما هذا الطعام؟ فقالوا: طعام جلب إلينا. قال: بارك الله فيه وفيمن جلبه، قيل يا أمير المؤمنين: فإنه قد احتكر، قال: ومن احتكره؟ قالوا: فروخ مولى عثمان وفلان مولى عمر؛ فأرسل إليهما فدعاهما، فقال: ما حملكما على احتكار طعام المسلمين؟ قالا: يا أمير المؤمنين، نشترى بأموالنا ونبيع. فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالإفلاس أو بجذام**» فقال فروخ عند ذلك: يا أمير المؤمنين، أعاهد الله وأعاهدك أن لا أعود فى طعام أبدًا، وأما مولى عمر فقال: إنما نشترى بأموالنا ونبيع قال أبو يحيى: فلقد رأيت مولى عمر مجذومًا[3].

---

(١) مسند الإمام أحمد ص١٨١ جـ١ بإسناد صحيح، ما بين القوسين الكبيرين نص الحديث الذى ذكره أبو هريرة أولا ثم ذكر مناقشة عمر وأبى بكر رضى الله عنهما.

(٢) مسند الإمام أحمد ص١٩٧ جـ١ بإسناد صحيح قال الحافظ ابن حجر فى التهذيب جـ٣ ص٦٦، ٦٧ فى ترجمة حويطب (روى له الشيخان والنسائى حديثا واحدا فى العمالة، وهو الذى اجتمع فى إسناده أربعة من الصحابة) يريد هذا الحديث والصحابة الأربعة: هم السائب وحويطب وعبد الله بن السعدى وعمر) انظر: هامش ص١٩٧ جـ١ من مسند أحمد. ومعنى مشرف فى الحديث: متطلع إلى المال.

(٣) مسند الإمام أحمد ص٢١٤ حديث ١٣٥ جـ١ بإسناد صحيح وأبو يحيى المكى هو راوى الحديث عن فروخ.

وفى وقعة اليرموك كتب القادة إلى عمر بن الخطاب: «إنه قد جاش إلينا الموت» يستمدونه، فكان فيما أجابهم «إنى أدلكم على من هو أعز نصرا، وأحضر جندًا، الله عز وجل، فاستنصره، فإن محمدًا ﷺ، قد نصر يوم بدر فى أقل من عدتكم، فإذا أتاكم كتابى هذا فقاتلوهم ولا تراجعونى[1]»!!

هكذا كان الصحابة يتمسكون بهدى النبى ﷺ وسنته، ولو كانوا يشرفون على الموت والهلاك.

وكان الصحابة جميعًا يحرصون على سنن النبى عليه الصلاة والسلام، ويأمر بعضهم بعضًا باتباعها، من ذلك أن عمر بن الخطاب رأى زيد بن خالد الجهنى يركع بعد العصر ركعتين فمشى إليه وضربه بالدرة، فقال له زيد: يا أمير المؤمنين، اضرب فوالله لا أدعهما بعد أن رأيت رسول الله ﷺ يصليهما، فقال له عمر: يا زيد، لولا أنى أخشى أن يتخذ الناس سلمًا إلى الصلاة حتى الليل لم أضرب فيها[2].

ويرى عمر رضى الله عنه الناس قد أقبلوا على طيبات الدنيا مما أحل لهم الله تعالى، فيذكرهم برسولهم ﷺ، فيقول: «لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوى، ما يجد دقلا يملأ به بطنه»[3].

لقد كان عمر رضى الله عنه وصحابة رسول الله ﷺ يتأسون بالرسول الكريم ما استطاعوا فى جميع أحوالهم، فلما طعن عمر رضى الله عنه قيل له: ألا تستخلف؟ فقال: إن أترك فقد ترك من هو خير منى: رسول الله ﷺ، وإن أستخلف فقد استخلف من هو خير منى: أبو بكر[4].

حدث مالك بن عبد الله الزيادى عن أبى ذر: أنه جاء يستأذن على عثمان ابن عفان فأذن له وبيده عصاه، فقال عثمان: يا كعب، إن عبد الرحمن توفى

---

(١) مسند الإمام أحمد ص٣٠٤ جـ١.

(٢) كتاب الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص٩٢، وقد روى الإمام مسلم عن أنس قال: كان عمر يضرب الأيدى على صلاة بعد العصر.

(٣) مسند الإمام أحمد ص٣٠٧، ٣٢٤ بإسناد صحيح، والدقل هو ردىء التمر ويابسه.

(٤) المرجع السابق ص٢٨٤ جـ١.

وترك مالا فما ترى فيه؟ فقال: إن كان يصل فيه حق الله فلا بأس عليه، فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعبا، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما أحب لو أن لى هذا الجبل ذهبًا أنفقه ويتقبل منى أذر خلفى منه ست أواق»**، أنشدك الله يا عثمان، أسمعته؟ ثلاث مرات قال: نعم[1].

وقال عطاء الخراسانى: سمعت سعيد بن المسيب يقول: رأيت عثمان قاعدا فى المقاعد، فدعا بطعام مما مسته النار فأكله، ثم قام إلى الصلاة فصلى، ثم قال عثمان: قعدت مقعد رسول الله ﷺ، وأكلت طعام رسول الله وصليت صلاة رسول الله ﷺ[2].

وعن ميسرة بن يعقوب الطهوى قال: رأيت عليا يشرب قائمًا. قال فقلت له: تشرب قائمًا؟! فقال: إن أشرب قائمًا فقد رأيت رسول الله ﷺ يشرب قائما، وإن أشرب قاعدا فقد رأيت رسول الله ﷺ يشرب قاعدا[3].

وعن عبد خير بن يزيد الخيوانى الهمدانى (تابعى) عن على (رضى الله عنه) قال: كنت أرى أن باطن القدمين أحق بالمسح من ظاهرهما، حتى رأيت رسول الله ﷺ يمسح ظاهرهما[4].

وعن على بن ربيعة قال: رأيت عليا أتى بدابة ليركبها، فلما وضع رجله فى الركاب قال: باسم الله، فلما استوى عليها قال: الحمد لله، سبحانه الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، ثم حمد الله ثلاثا وكبر ثلاثا، ثم قال: سبحانك لا إله إلا أنت، قد ظلمت نفسى، فاغفرلى، ثم ضحك، فقلت: مم ضحكت يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل مثل

---

(١) مسند الإمام أحمد ص٣٥٧ جـ١ بإسناد صحيح.

(٢) المرجع السابق ص٣٧٨ جـ١ بإسناد صحيح. ويظهر أن المقاعد مكان فى المسجد كانوا يتوضؤون عنده، وقد ورد ذكره فى حديث رواية عثمان لوضوء الرسول ﷺ.

(٣) مسند الإمام أحمد ص١٧٩ حديث ٩١٦ جـ٢ بإسناد حسن ومن طريق زاذان أن على بن أبى طالب شرب قائما فنظر إليه الناس كأنهم أنكروه، فقال: ما تنظرون؟ إن أشرب قائما الحديث بإسناد صحيح نفس المرجع ص١٣٠ جـ٢ حديث ٧٩٥.

(٤) مسند الإمام أحمد ص١٠٣ حديث ٧٣٧، ٩١٧ جـ٢ بإسناد صحيح.

ما فعلت، ثم ضحك فقلت: مم ضحكت يا رسول الله؟ قال: «**يعجب الرب من عبده إذا قال رب اغفرلى، ويقول علم عبدى أنه لا يغفر الذنوب غيرى**[1]».

وكان الصحابة يتأسون بالرسول الكريم، ويحافظون على سنته، سواء أعرفوا علة ذلك أم لم يعرفوا، وسواء أتوقعوا حكمة لما يفعلون أم لم يتوقعوا، وقد اشتهر عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما بمحافظته الشديدة على سنن رسول الله ﷺ، فكان الرسول أسوته فى كل شىء، فى صلاته وحجه وصيامه، حتى فى قضاء حاجته[2] وكان كثيرًا ما يقول: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾ [الأحزاب: ٢١]، وكان إذا سمع من الرسول ﷺ شيئا، أو شهد معه مشهدا، لم يقصر دونه أو يعدوه[3]، كان يقف عند الحد الوارد فى الحديث أو الفعل النبوى من غير إفراط ولا تفريط. عن مجاهد قال كنا مع ابن عمر فى سفر، فمر بمكان فحاد عنه، فسئل: لم فعلت؟ فقال: رأيت رسول الله ﷺ فعل هذا ففعلت[4]، وكان يأتى شجرة بين مكة والمدينة فيقيل تحتها، ويخبر أن النبى عليه الصلاة والسلام كان يفعل ذلك[5].

ووقف عمر بن الخطاب على الركن قائلا: «إنى لأعلم أنك حجر، ولو لم أرحبيبى ﷺ قبلك أو استلمك ما استلمتك ولا قبلتك ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾[6].

وكان ينهى أن يزيد إنسان على ما فعله رسول الله ﷺ قال يعلى بن أمية: طفت مع عمر بن الخطاب، فلما كنت عند الركن الذى يلى الباب مما يلى الحجر، أخذت بيده ليستلم، فقال: أما طفت مع رسول الله ﷺ؟ قلت: بلى، قال: فهل

---

(١) مسند الإمام أحمد ١٠٩ حديث ٧٥٣ جـ٢.

(٢) راجع مسند الإمام أحمد ص١٩١ حديث ٦٣٩١، ٦١٥١ جـ٩.

(٣) انظر: مسند الإمام أحمد ص٢٩٧ حديث ٥٥٤٦ جـ٧ بإسناد صحيح، وسنن ابن ماجه ص٣ جـ١.

(٤) مسند الإمام أحمد ص٥٤ حديث ٤٨٧٠ جـ٧ بإسناد صحيح.

(٥) نظرة عامة فى تاريخ الفقة الإسلامى ص١٢٦ وقد أخرجه البزار.

(٦) مسند الإمام أحمد ص٢١٣، ١٩٧ جـ١ بإسناد صحيح.

رأيته يستلمه؟ قلت: لا. قال: فانفذ عنك، فإن لك فى رسول الله أسوة حسنة[١].

وقال على رضى الله عنه فى القيام للجنازة: قد رأينا رسول الله ﷺ قام فقمنا، وقعد فقعدنا[٢].

وكان رسول الله ﷺ قد أمر الصحابة ومن معه يوم الفتح بأن يكشفوا عن مناكبهم، ويهرولوا فى الطواف، ليرى المشركون قوتهم وجلدهم، وقويت دولة الإسلام ورأى عمر أن هذا الأمر قد ذهبت علته، ولكنه قال: فيم[٣] الرملان الآن والكشف عن المناكب، وقد أطأ الله الإسلام ونفى الكفر وأهله؟ ومع ذلك لا ندع شيئًا كنا نفعله على عهد رسول الله ﷺ[٤].

وقيل لعبد الله بن عمر: لا نجد صلاة السفر فى القرآن؟ فقال ابن عمر: إن الله عز وجل بعث إلينا محمدا ﷺ، ولا نعلم شيئا فإنما نفعل كما رأينا محمدا ﷺ يفعل[٥]. وفى رواية قال: وكنا ضلالا فهدانا الله به، فبه نقتدى[٦].

كان الصحابة رضى الله عنهم لا يرضون ترك سنة كان عليها رسول الله ﷺ ولا يقبلون مع السنة رأى أحد مهما كان شأنه، ومهما علت مكانته بل كانوا يغضبون غضبًا شديدا وينكرون إنكارا قويًا على من لا يستجيب لسنة سنها الرسول الكريم، أو لخلق تخلق به، ولو كان من ينكرون ذلك عليهم ولدهم أو أقرب الناس إليهم.

---

(١) مسند الإمام أحمد ص٢٦٥ جـ١ بإسناد صحيح.

(٢) مسند الإمام أحمد ص٥٢ جـ٢ بإسناد صحيح.

(٣) فى الأصل (فيما) وانظر الهامش التالى.

(٤) مسند الإمام أحمد ص٢٩٣ حديث ٣١٧ جـ١ بإسناد صحيح أطأ: ثبت وأرسى والهمزة فيه بدل واو (وطأ). فيما: استفهامية وظاهر كلام النحويين وجوب حذف ألفها إذا دخل عليها حرف الجر، ولكن قرأ عبد الله وأبى وعكرمة وعيسى (عما يتساءلون) بالألف.

(٥) مسند الإمام أحمد ص٦٨ حديث ٥٦٨٣ جـ٨ وص٢٠٩ حديث ٥٣٣٣ جـ٧ والسائل فى الحديث المذكور هو خالد بن أسيد.

(٦) المرجع نفسه ص٧٧ حديث ٥٦٩٨ جـ٨.

من ذلك ما رواه سعيد بن جبير عن عبد الله بن مغفل[1] أنه كان جالسًا إلى جنبه ابن أخ له، فخذف[2]، فنهاه وقال: إن رسول الله ﷺ نهى عنها وقال: «**إنها لا تصيد صيدا ولا تنكى عدوا، وإنها تكسر السن، وتفقأ العين**». قال: فعاد ابن أخيه يخذف فقال: أحدثك أن رسول الله ﷺ نهى عنها، ثم عدت تخذف إذًا لا أكلمك أبدا!![3].

وعن سالم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تمنعوا إماء الله أن يصلين فى المسجد**»، فقال ابن له: إنا لنمنعهن، فقال: فغضب غضبًا شديدًا وقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول: إنا لنمنعهن[4]. وفى رواية فانتهره عبد الله، قال: أف لك!! أقول: قال رسول الله ﷺ وتقول: لا أفعل[5].

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: تمتع النبى ﷺ، فقال عروة بن الزبير: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة!! فقال ابن عباس: ما يقول عُرَيَّةُ؟ قال: يقول نهى أبو بكر وعمر عن المتعة!! فقال ابن عباس: أراهم سيهلكون! أقول: قال النبى ﷺ، ويقول: نهى أبو بكر وعمر[6]!!

وهذا عبادة بن الصامت الأنصارى، النقيب، صاحب رسول الله ﷺ، غزا مع معاوية أرض الروم، فنظر إلى الناس وهم يتبايعون كسر الذهب بالدنانير، وكسر الفضة بالدراهم، فقال: يأيها الناس، إنكم تأكلون الربا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تبتاعوا الذهب بالذهب إلا مثلاً بمثل، لا زيادة بينهما، ولا نظرة**»، فقال له

---

(١) عبد الله بن مغفل صحابى جليل من أصحاب الشجرة روى عن النبى ﷺ وعن أبى بكر وعثمان وغيرهم، وعنه روى ثابت البنانى. . سكن المدينة ثم تحول إلى البصرة وتوفى فيها سنة (٥٧) هـ وقيل ٦١ وقيل ٦٠. انظر تهذيب التهذيب جـ٦ ص ٤٢.

(٢) خذف: من الخذف وهو أن يجعل الحصاة أو النواة بين سبابتيه ويرمى بها.

(٣) سنن ابن ماجه ص٦ جـ١.

(٤) سنن ابن ماجه ص٦ جـ١ ونحوه فى مسند الإمام أحمد ص٢٦٦ حديث ٥٤٦٨ جـ٧ بإسناد صحيح. وابن عبد الله بن عمر هذا هو بلال: كما ذكره فى الحديث رقم ٥٦٤٠ من المسند فى ص٤٣ جـ٨.

(٥) مسند الإمام أحمد ص٢٩٠ حديث ٦١٠١ جـ٨ وص١٣٢ حديث ٦٢٩٦ جـ٩ بإسناد صحيح وانظر نحوه فى جامع بيان العلم ص١٩٥ جـ٢.

(٦) مسند الإمام أحمد ص٤٨ حديث ٣١٢١ جـ٥ بإسناد صحيح.

معاوية: يا أبا الوليد لا أرى الربا فى هذا إلا ما كان من نظرة، فقال عبادة: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتحدثنى عن رأيك، لئن أخرجنى الله لا أساكنك بأرض لك على فيها إمرةُ فلما قفل لحق بالمدينة، فقال له عمر بن الخطاب: ما أقدمك يا أبا الوليد؟ فقص عليه القصة، وما قال من مساكنته. فقال: ارجع يا أبا الوليد إلى أرضك، قبح الله أرضا لست فيها وأمثالك، وكتب إلى معاوية، لا إمرة لك عليه، وأحمل الناس على ما قال، فإنه هو الأمر[1].

أولئك صحابة رسول الله الذين حفظوا سنته، ووجهوا الأمة إلى السبيل القويم، وحملوا الأمراء على تطبيق أحكام الشريعة، وأبوا أن يماروا فى دين الله صادعين بالحق، لا يخافون فيه لومة لائم.

وعن الزبير بن عربى قال: سمعت رجلا يسأل ابن عمر عن الحجر قال: رأيت رسول الله ﷺ يستلمه ويقبله، فقال رجل: أرأيت إن زحمت؟ فقال ابن عمر: اجعل (أرأيت) باليمن!! رأيت رسول الله يستلمه ويقبله[2].

وعن وبرة بن عبد الرحمن قال: أتى رجل إلى ابن عمر فقال: أيصلح أن أطوف بالبيت وأنا محرم؟ قال: ما يمنعك من ذلك؟. قال: إن فلانا ينهانا عن ذلك حتى يرجع الناس من الموقف، ورأيته كأنه مالت به الدنيا، وأنت أعجب إلينا منه. قال ابن عمر: حج رسول الله ﷺ، فطاف بالبيت، وسعى بين الصفا والمروة، وسنة الله تعالى ورسوله أحق أن تتبع من سنة ابن فلان، إن كنت صادقا[3]. وفى رواية أخرى صرح بأن الذى كنى عنه بفلان هو ابن عباس.

---

(١) سنن ابن ماجه ص٧ جـ١. كسرة الذهب كالقطعة لفظا ومعنى، وجمعها كسر كقطع، نظرة: انتظار أى أجل.

(٢) مسند الإمام أحمد ص١٩٤ جـ٩ بإسناد صحيح وقد أخرجه البخارى. ومن الخطأ أن يظن ظان من قول ابن عمر أن اليمن كانت تعتمد على الرأى إنما ضرب اليمن مثلا لجهة قاصية يرمى إليها هذا الاعتراض أدبا مع السنة النبوية، مبينا أنه لا مجال للسؤال والجواب إذا ما وجدت السنة فى أمر ما، ويدل على، ذلك رواية الطيالسى وفيها اجعل (أرأيت) مع هذا الكوكب.

(٣) مسند الإمام أحمد ص١٦٩ حديث ٥١٩٤ جـ٧ بإسناد صحيح.

وكان عبد الله بن عمر يفتى بالذى أنزل الله عز وجل من الرخصة بالتمتع وبما سن رسول الله ﷺ فيه، فيقول ناس لابن عمر: كيف تخالف أباك وقد نهى عن ذلك؟ فيقول لهم عبد الله: ويلكم!! ألا تتقون الله؟ إن كان عمر نهى عن ذلك فيبتغى فيه الخير يلتمس به تمام العمرة، فلم تحرمون ذلك وقد أحله الله وعمل به رسول الله عليه الصلاة والسلام؟! أفرسول الله ﷺ أحق أن تتبعوا سنته أم سنة عمر؟ إن عمر لم يقل لكم إن العمرة فى أشهر الحج حرام، ولكنه قال إن أتم العمرة أن تفردوها من أشهر الحج[1].

وفى ختام ذلك أسوق تمسك عبد الله بن عمرو بن العاص بعبادته التى فارق عليها رسول الله ﷺ، فقد كان عبد الله بن عمرو من أعبد الصحابة وأورعهم وأزهدهم، كثير الصيام والقيام، وكان رسول الله ﷺ قد رخص له أن يصوم أيامًا من كل شهر إلا أنه وجد فى نفسه القوة على الصيام.

وأراد أن يصوم الدهر كله، وفى آخر أيامه ضعف عن ذلك فقال: «لأن أكون قبلت رخصة رسول الله ﷺ أحب إلى مما عُدِل به أو عَدَل.

لكنى فارقته على أمر أكره أن أخالفه إلى غيره»[2].

---

(١) مسند الإمام أحمد ص٧٧ حديث ٥٧٠٠ جـ٨ وإسناده صحيح. وفى الموطأ كما رواه محمد: مالك عن نافع، أن عمر بن الخطاب قال: «افصلوا بين حجتكم وعمرتكم، فإنه أتم لحج أحدكم وأتم لعمرته أن يعتمر فى غير أشهر الحج» انظر: هامش صفحة ٧٨ فى الجزء الثامن.

(٢) مسند الإمام أحمد ص٢٤٠ حديث ٦٤٧٧ جـ٩.

عدل به: أى وزن. أى من كل شىء يقابل ذلك من الدنيويات، أو عدل أى ساوى والمعنى مقارب فى الحرفين:

وانظر: الرسالة ص٤٤٦ فيها أخبار عن تمسك بعض الصحابة بالسنة وعدم قبول رأى لأحد مع حديث رسول الله ﷺ.

احتياط الصحابة والتابعين فى رواية الحديث

لقد عرف الصحابة منزلة السنة فتمسكوا بها، وتتبعوا آثار الرسول ﷺ، وأبوا أن يخالفوها متى ثبتت عندهم، كما أبوا أن ينحرفوا عن شيء، فارقهم عليه، واحتاطوا فى رواية الحديث عنه عليه الصلاة والسلام، خشية الوقوع فى الخطأ، وخوفا من أن يتسرب إلى السنة المطهرة الكذب أو التحريف، وهى المصدر التشريعى الأول بعد القرآن الكريم، ولهذا اتبعوا كل سبيل يحفظ على الحديث نوره، فآثروا الاعتدال فى الرواية عن رسول الله ﷺ، بل إن بعضهم فضل الإقلال منها، قال ابن قتيبة: «كان عمر شديد الإنكار على من أكثر الرواية، أو أتى بخبر فى الحكم لا شاهد له عليه، وكان يأمرهم بأن يقلوا الرواية، يريد بذلك ألا يتسع الناس فيها، ويدخلها الشوب، ويقع التدليس والكذب من المنافق والفاجر والأعرابى، وكان كثير من جلة الصحابة وأهل الخاصة برسول الله ﷺ، كأبى بكر والزبير وأبى عبيدة والعباس بن عبد المطلب ـ يقلون الرواية عنه، بل كان بعضهم لا يكاد يروى شيئًا كسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة[1]».

والتزم الصحابة ـ فى الخلافة الراشدة ـ منهاج عمر رضى الله عنه، وأتقنوا أداء الحديث، وضبطوا حروفه ومعناه[2]، وكانوا يخشون كثيرًا أن يقعوا فى الخطأ، لذلك نرى بعضهم ـ مع كثرة تحملهم عن الرسول ﷺ ـ لا يكثر من الرواية فى ذلك العهد، حتى إن منهم من كان لا يحدث حديثا فى السنة، ونرى من تأخذه الرعدة، ويقشعر جلده، ويتغير لونه ورعا واحتراما لحديث رسول الله ﷺ، ومن هذا، ما رواه عمرو بن ميمون قال: ما أخطأنى ابن مسعود عشية خميس إلا أتيته فيه، قال: فما سمعته يقول بشيء قط «قال رسول الله ﷺ» فلما كان ذات عشية قال: «قال رسول الله ﷺ، قال: فنكس، قال فنظرت إليه، فهو قائم محللة أزرار

(١) تأويل مختلف الحديث: ٤٨، ٤٩.

(٢) انظر: المبحث الرابع من الفصل الأول فى الباب الثانى فيما يلى، وقد بينت فيه كيف روى الحديث.

قمـيصه، قـد اغرورقت عيناه، وانتـفخت أوداجه، قـال: أو دون ذلك، أو فوق ذلك، أو قريبًا من ذلك، أو شبيهًا بذلك[1]».

وقال أنس بن مالك رضى الله عنه: لولا أنى أخـشى أن أخطئ لحدثتكم بأشياء سمعتـها من رسول الله ﷺ[2]. وكان إذا حدث عن رسول الله ﷺ حـديثا ففرغ منه، قال: أو كما قال رسول الله ﷺ[3]، وكذلك كان يفعل أبو الدرداء وغيره.

وجالس الشعبى ابن عمر سنة فما سمعه يحدث عن رسول الله ﷺ شيئا[4].

وروى عن أنس أنه قـال: إنه ليمنعنى أن أحـدثكم حديثًـا كثيـرا أن النبى ﷺ قال: «**من تعمد على كذبًا فليتبوأ مقعده من النار**[5]».

وعن ثابت البنانى: أن بنى أنس بن مالك قالوا لأبيهم: يا أبانا، ألا تحدثنا كما تحدث الغرباء؟ قال: أى بنى إنه من يكثر يهجر[6].

وقـال عبـد الرحـمن بن أبى ليلى: «أدركت مـائة وعشـرين من الأنصـار من أصحاب مـحمد ﷺ، ما مـنهم أحد يـحدث بحـديث إلا ود أن أخاه كـفاه إياه، ولا يستفتى عن شىء إلا ود أن أخاه كفاه إياه». وفى رواية: «يسأل أحدهم المسألة فيردها هذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول»[7].

وقال مجاهد: صـحبت ابن عمر من مكة إلى المدينة. فما سمـعته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا هذا الحديث: «**مثل المؤمن مثل النخلة**»[8].

---

(١) سنن ابن ماجه ص٨ جـ١. نكس أى طأطأ رأسه وخفضه.
وانظر: نحـوه فى مسند الإمـام أحمد ص٤٦ حـديث ٤٠١٥ جـ٦ وفى الجامـع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص٩٨: أ.
(٢) سنن الدارمى ص٧٧ جـ١.
(٣) سنن ابن ماجه ص٨ جـ١ وسنن الدارمى ص٨٤ جـ١ والسنن الكبرى للبيهقى ص١١ جـ١.
(٤) سنن الدارمى ص٨٤ جـ١ وانظر: السنن الكبرى ص١١ جـ١ وأخرجه ابن ماجه فى سننه ص٨ جـ١.
(٥) صحيح البخارى بحاشية السندى ص٣١ جـ١.
(٦) طبقات ابن سعد ص١٤ جـ٧.
(٧) مختصر كتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول ص١٣.
(٨) انظر صحيح مسلم ص ٢١٦٥ جـ٤. وقبول الأخبار ص٢٥.

وقال السائب بن يزيد إنه صحب سعد بن أبى وقاص من المدينة إلى مكة، قال: فما سمعته يحدث عن النبى ﷺ حديثا حتى رجع[1].

وعن عبد الله بن الزبير، قال: قلت للزبير بن العوام: مالى لا أسمعك تحدث عن رسول الله ﷺ كما أسمع ابن مسعود وفلانا وفلانا؟ قال: أما إنى لم أفارقه منذ أسلمت، ولكنى سمعت منه كلمة يقول: «**من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**[2]» وفى رواية: سمعته يقول: «**من كذب على فليتبوأ مقعده من النار**[3]».

وعن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال: قلنا لزيد بن أرقم: حدثنا عن رسول الله ﷺ، قال: كبرنا ونسينا، والحديث عن رسول الله ﷺ شديد[4].

هكذا تشدد الصحابة فى الحديث، وأمسك بعضهم عنه كراهية التحريف، أو الزيادة والنقصان فى الرواية عن الرسول ﷺ لأن كثرة الرواية كانت فى نظر كثير منهم مظنة الوقوع فى الخطأ، والكذب على رسول الله ﷺ، وقد نهى رسول الله عن الكذب عليه وعن رواية ما يرى أنه كذب، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «**من روى عنى حديثًا وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين**[5]».

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع**[6]».

---

(١) طبقات ابن سعد ص١٠٢ قسم ١ جـ٣، وانظر: سنن ابن ماجه ص٩ جـ١ وسنن البيهقى ص١٢ جـ١، وانظر: المحدث الفاصل ص١٣٤: أ وفى قبول الأخبار ص٢٥ أنه صحب طلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص، والمقداد بن الأسود... الحديث.

(٢) سنن ابن ماجه ص١٠ جـ١ وقوله «أما إنى لم أفارقه» يعنى به أنه ذلك ليس لقلة صحبته.

(٣) الكفاية ص١٠٢ وأخرجه البخارى كذلك: انظر: فتح البارى ص٢١٠ جـ١ وانظر: المصباح المضىء ص٢٠: ب وتمييز المرفوع عن الموضوع ص٢: ب.

وفى رواية الكفاية قال قلت لأبى الزبير... الحديث.

وانظر: طبقات ابن سعد ص٧٥ قسم ١ جـ٣ من طريق وهب بن جرير وقال بعد رواية الحديث: والله ما قال متعمدا وأنتم تقولون متعمدا.

(٤) سنن ابن ماجه ص٨ جـ١ وسنن البيهقى ص١١ جـ١٠ والمحدث الفاصل ص١٣٢: أ.

(٥) مقدمة التمهيد لابن عبد البر ص ١١.

(٦) مقدمة التمهيد ص١١ وفى رواية ابن مسعود (إثما) بدل (كذبا) وانظر تذكره الحفاظ ص١٥ جـ١.

وكان الصحابة رضى الله عنهم يخشون أن يقعوا فى الكذب عامة، فكيف يكذبون على رسول الله ﷺ؟ قال على رضى الله عنه: «إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ حديثا فلأن أخر من السماء أحب إلى من أن أكذب عليه...[1]».

وقد تشدد عمر بن الخطاب فى تطبيق هذا المنهاج، فحمل الناس على التثبت مما يسمعون، والتروى فيما يؤدون، فكان له الفضل الكبير فى صيانة الحديث من الشوائب والدخل، وقد طبق ذلك الصحابة أيضًا، يقول ابن مسعود: ليس العلم بكثرة الحديث، ولكن العلم الخشية[2].

ويصور لنا أبو هريرة رضى الله عنه محافظة الصحابة على السنة فى عهد عمر بإجابته عن سؤال طرحه عليه أبو سلمة، قال له: أكنت تحدث فى زمان عمر هكذا؟ فقال: لو كنت أحدث فى زمان عمر مثل ما أحدثكم لضربنى بمخفقته[3]!

وفى رواية قال: لقد حدثتكم بأحاديث لو حدثت بها زمن عمر لضربنى عمر بالدرة[4].

وقد كان تشدد عمر هذا والصحابة معه للمحافظة على القرآن الكريم، بجانب المحافظة على السنة، فقد خشى أن يشتغل الناس بالرواية عن القرآن الكريم، وهو دستور الإسلام، فأراد أن يحفظ المسلمون القرآن جيدا، ثم يعتنوا بالحديث الشريف الذى لم يكن قد دون كله فى عهد الرسول ﷺ كالقرآن. فنهج لهم التثبت العلمى والإقلال من الرواية مخافة الوقوع فى الخطأ وقد عرف إتقان بعض الصحابة وحفظهم الجيد فسمح لهم بالتحديث.

ويتجلى منهاج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى وصيته التى أوصى بها وفده إلى الكوفة فيما روى عن قرظة بن كعب أنه قال: «بعثنا عمر

---

(١) مسند الإمام أحمد ص٤٥ جـ٢.

(٢) مختصر كتاب المؤمل فى الرد إلى الأمر الأول ص٦.

(٣) تذكرة الحفاظ ص٧ جـ١ وانظر فى هذا الكتاب أبا هريرة القسم الثانى فى دفع شبهات عنه، وقد اشتهرت الرواية عن أبى هريرة بأن عمر سمع له بالرواية عندما عرف خشيته وورعه.

(٤) جامع بيان العلم وفضله ص١٢١ جـ٢.

ابن الخطاب إلى الكوفة، وشيعنا إلى موضع قرب المدينة يقال له: صرار، قال: أتدرون لم مشيت معكم؟ قال: قلنا: لحق صحبة رسول الله ﷺ ولحق الأنصار. قال: لكنى مشيت معكم لحديث أردت أن أحدثكم به، فأردت أن تحفظوه لمشاى معكم: إنكم تقدمون على قوم للقرآن فى صدورهم هزيز كهزيز المرجل، فإذا رأوكم مدوا إليكم أعناقهم، وقالوا أصحاب محمد، فأقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ، وأنا شريككم»[1] وفى رواية: فلما قدم قرظة بن كعب قالوا: حدثنا، فقال: نهانا عمر رضى الله عنه[2].

وروى عن أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه أنه اتبع منهج الخليفة الراشد عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ومنع الإكثار من الرواية، قال محمود بن لبيد: سمعت عثمان على المنبر يقول: لا يحل لأحد يروى حديثًا عن رسول الله ﷺ لم أسمع به فى عهد أبى بكر ولا عهد عمر، فإنه لم يمنعنا أن نحدث عن رسول الله ﷺ أن لا أكون أوعى لأصحابه عنه، ألا إنى سمعته يقول: «**من قال على ما لم أقل فقد تبوأ مقعده من النار**»[3].

وقد سبق لى أن بينت تطبيق الإمام على رضى الله عنه لمنهج الصحابة رضوان الله عليهم.

ويروى أن معاوية كان يقول: اتقوا الروايات عن رسول الله ﷺ إلا ما كان يذكر منها فى زمن عمر، فإن عمر كان يخوف الناس فى الله تعالى[4].

---

(١) سنن ابن ماجه ص٩ جـ١ وطبقات ابن سعد ص٢ جـ٦، والهزيز: الصوت. وقوله وأنا شريككم أى شريككم فى الإقلال أى أنصحكم بذلك وأعمل بنصيحتى لا كما ذهب إليه السندى من أنه شريك فى الأجر بسبب أنه الدال الباعث لهم على الخير. انظر: هامش ص٩ جـ١ من سنن ابن ماجه، ذلك لأن المقام لا يحتمله.

(٢) تذكرة الحفاظ ص٧ جـ١ وجامع بيان العلم ص١٢٠ جـ٢ وشرف أصحاب الحديث ص٩٧: أ، وانظر: سنن الدارمى ص٨٥ جـ١، وسنن البيهقى ص١٢ جـ١.

(٣) قبول الأخبار ص٢٩. والحديث بإيجاز فى مسند الإمام أحمد ص ٣٦٣ جـ١ بإسناد صحيح.

(٤) رد الدارمى على بشر المريسى ص ١٣٥. وانظر: تذكرة الحفاظ ص٧ جـ١.

تلكم طريقة الصحابة ومنهجهم فى المحافظة على حديث رسول الله ﷺ، خشية الوقوع فى الخطأ، أو تسرب الدس إلى الحديث الشريف من الجهلاء وأصحاب الأهواء، أو أن تحمل بعض الأحاديث على غير وجه الحق والصواب، فيكون الحكم بخلاف ما أخذ به. فعلوا ذلك كله احتياطا للدين ورعاية لمصلحة المسلمين، لا زهدًا فى الحديث النبوى ولا تعطيلا له. فلا يجوز لإنسان أن يفهم من منهاج الصحابة ومن تشدد عمر خاصة ـ هجر الصحابة للسنة أو زهدهم فيها، معاذ الله أن يقول هذا إلا جاهل أو صاحب هوى، لا علم له بقليل من السنة، ولم تخالط قلبه روح الصحابة، ولا أنار سبيله قبس من هداهم، فقد ثبت عن الصحابة جميعا تمسكهم بالحديث الشريف وإجلالهم إياه، وأخذهم به، وقد تواتر خبر اجتهاد الصحابة إذا وقعت لهم حادثة شرعية من حلال أو حرام، وفزعهم إلى كتاب الله تعالى، فإن وجدوا فيه ما يريدون تمسكوا به، وأجروا (حكم الحادثة) على مقتضاه، وإن لم يجدوا ما يطلبون فزعوا إلى «السنة» فإن روى لهم خبر أخذوا به، ونزلوا على حكمه، وإن لم يجدوا الخبر فزعوا إلى الاجتهاد بالرأى[1].

وطريقة أبى بكر وعمر فى الحكم مشهورة: كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه حكم نظر فى كتاب الله تعالى، فإن وجد فيه ما يقضى به قضى به، وإن لم يجد فى كتاب الله نظر فى سنة رسول الله ﷺ، فإن وجد فيها ما يقضى به قضى به، فإن أعياه ذلك سأل الناس: هل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى فيه بقضاء؟ فربما قام إليه القوم فيقولون: قضى فيه بكذا وكذا، فإن لم يجد سنة سنها النبى ﷺ جمع رؤساء الناس فاستشارهم[2]. . وكان عمر رضى الله عنه يفعل ذلك.

هكذا كان منهج الصحابة جميعا فى كل ما يرد عليهم، وليس لأحد بعد هذا أن يتخذ بعض ما ورد عن الصحابة ذريعة لهواه. ونستعرض موقف بعض علماء الحديث من ذلك.

---

(١) انظر: الملل والنحل للشهرستانى ص٤٤٦، ٤٤٧.

(٢) إعلام الموقعين ص٦٢ جـ١ عن كتاب القضاء لأبى عبيد.

١ - رأى ابن عبد البر:

قال: (احتج بعض من لا علم له ولا معرفة من أهل البدع وغيرهم، الطاعنين فى السنن، بحديث عمر هذا قوله: «أقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ» . . وجعلوا ذلك ذريعة إلى الزهد فى سنن رسول الله ﷺ، التى لا يوصل إلى مراد كتاب الله إلا بها، والطعن على أهلها ولا حجة فى هذا الحديث، ولا دليل على شيء مما ذهبوا إليه من وجوه قد ذكرها أهل العلم، منها:

- أن وجه قول عمر إنما كان لقوم لم يكونوا أحصوا القرآن فخشى عليهم الاشتغال بغيره عنه، إذ هو الأصل لكل علم. هذا معنى قول أبى عبيد فى ذلك.

- وقال غيره إن عمر نهى عن الحديث عما لا يفيد حكما ولا يكون سنة.

- وطعن غيرهم فى حديث قرظة هذا ورده، لأن الآثار الثابتة عن عمر خلافه، منها ما روى مالك ومعمر وغيرهما عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة، عن عمر بن الخطاب، فى حديث السقيفة أنه خطب يوم جمعة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإنى أريد أن أقول مقالة قد قدر لى أن أقولها، من وعاها وعقلها وحفظها فليحدث بها حيث تنتهى به راحلته، ومن خشى أن لا يعيها فإنى لا أحل له أن يكذب على. . .[1] وهذا يدل على أن نهيه عن الإكثار، وأمره بالإقلال من الرواية عن رسول الله ﷺ إنما كان خوف الكذب على رسول الله ﷺ، وخوفًا من يكونوا - مع الإكثار - يحدثون بما لم يتيقنوا حفظه، ولم يعوه، لأن ضبط من قلت روايته أكثر من ضبط المستكثر، وهو أبعد من السهو والغلط الذى لا يؤمن مع الإكثار، لهذا أمرهم عمر بالإقلال من الرواية، ولو كره الرواية، وذمها لنهى عن الإقلال منها والإكثار، ألا تراه يقول: فمن حفظها ووعاها فليحدث بها، فكيف يأمرهم بالحديث عن رسول الله ﷺ وينهاهم عنه؟ هذا لا يستقيم، بل كيف ينهاهم عن الحديث عن رسول الله ﷺ ويأمرهم بالإقلال منه، وهو يندبهم إلى الحديث عن نفسه، بقوله: من حفظ مقالتى ووعاها

(١) انظر هذا القول لعمر رضى الله عنه رواه الخطيب البغدادى عن ابن عباس فى الكفاية ص١٦٦.

فليحدث بها حيث تنتهى به راحلته؟ ثم قال: ومن خشى أن لا يعيها فلا يكذب علىَّ، وهذا يوضح لك ما ذكرنا، والآثار الصحاح عنه من رواية أهل المدينة بخلاف حديث قرظة هذا، وإنما يدور على (بيان[1]) عن (الشعبى) وليس مثله حجة فى هذا الباب، لأنه يعارض السنن والكتاب.

قال الله عز وجل ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]... ومثل هذا فى القرآن كثير، ولا سبيل إلى اتباعه[2] والتأسى به، والوقوف عند أمره، إلا بالخبر عنه، فكيف يتوهم أحد على عمر أنه يأمر بخلاف ما أمر الله به. وقد قال رسول الله ﷺ: «**نضر الله عبدًا سمع مقالتى فوعاها، ثم أداها إلى من لم يسمعها**... الحديث»، وفيه الحض الوكيد على التبليغ عنه ﷺ، وقال: «**خذوا عنى فى غير ما حدثت وبلغوا عنى**»، والكلام فى هذا أوضح من النهار لأولى النهى والاعتبار. ولا يخلو الحديث عن رسول الله ﷺ من أن يكون خيرا أو شرا. فإن كان خيرا ولا شك فى أنه خير فالإكثار من الخير أفضل، وإن كان شرا - فلا[3] يجوز أن يتوهم أن عمر يوصيهم بالإقلال من الشر[4]. وهذا يدلك أنه إنما أمرهم بذلك خوف مواقعة الكذب على رسول الله ﷺ، وخوف الاشتغال عن تدبر السنن والقرآن، لأن المكثر لا تكاد تراه إلا غير متدبر ولا متفقه.

وذكر مسلم بن الحجاج فى كتاب التمييز.... عن قيس بن عبادة قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: من سمع حديثا فأداه كما سمع فقد سلم. ومما يدل على هذا ما ذكرناه فيما يروى عن عمر أنه كان يقول: تعلموا الفرائض والسنة كما

---

(١) هو بيان بن بشر الأحمى أبو بشر الكوفى كما فى الخلاصة. وهو ثقة وطعن عبد البر فى روايته هذه لأنه خالف من هو أوثق منه. وهذا لا يمنع صحتها، وأرى أن جميع ما ورد عن عمر غير متعارض كما أبينه بعد قليل وطعن ابن حزم فى حديث قرظة أيضًا، وناقش نهى عمر رضى الله عنه عن الإكثار من التحدث مناقشة طيبة قريبة من مناقشة ابن عبد البر انظر الإحكام ص١٣٧ جـ٢ وما بعدها.

(٢) أى اتباع الرسول ﷺ.

(٣) فى الأصل (ولا) وقد تكون خطأ من الناسخ فأثبتناها (فلا) لأن الفاء رابطة لجواب (إن) الشرطية.

(٤) انظر: ما روى عن عمر رضى الله عنه فى الحرص على السنن إعلام الموقعين ص٥٥ جـ١.

تتعلمون القرآن. فسوى بينهما، . . . وكتب عمر تعلموا السنة والفرائض واللحن كما تتعلمون القرآن. . . قالوا: اللحن معرفة وجوه الكلام وتصرفه والحجة به، وعمر هو الناشد للناس فى غير موقف بل فى مواقف شتى: من عنده علم عن رسول الله ﷺ فى كذا، نحو ما ذكره مالك وغيره عنه فى توريث المرأة من دية زوجها، وفى الجنين يسقط ميتا عند ضرب بطن أمه وغير ذلك. . . وكيف يتوهم على عمر ما توهمه الذين ذكرنا قولهم وهو القائل: «إياكم والرأى، فإن أصحاب الرأى أعداء السنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها». . . وعمر أيضا هو القائل خير الهدى هدى محمد ﷺ، وهو القائل سيأتى قوم يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله. . .

ويقول ابن عبد البر: «وقد يحتمل عندى أن تكون الآثار كلها عن عمر صحيحة متفقة، ويخرج معناها على أن من شك فى شىء تركه، ومن حفظ شيئا وأتقنه جاز له أن يحدث به، وإن كان الإكثار يحمل الإنسان على التقحم فى أن يحدث بكل ما سمع من جيد وردىء، وغث وسمين، وقد قال رسول الله ﷺ: «**كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع**» رواه مسلم. . . ولو كان مذهب عمر ما ذكرناه، لكانت الحجة فى قول رسول الله ﷺ دون قوله، فهو القائل: «**نضر الله عبدًا سمع مقالتى فوعاها، ثم أداها وبلغها**». . . وقال النبى ﷺ: «**تسمعون ويسمع منكم**»، رواه أبو داود والإمام أحمد والحاكم. ا هـ)[1].

٢- رأى الخطيب البغدادى:

قال الخطيب: (إن قال قائل: ما وجه إنكار عمر على الصحابة روايتهم[2] عن رسول الله ﷺ، وتشديده عليهم فى ذلك، قيل له: فعل ذلك عمر احتياطا للدين وحسن نظر للمسلمين، لأنه خاف أن ينكلوا عن الأعمال، ويتكلوا على ظاهر الأخبار، وليس حكم جميع الأحاديث على ظاهرها ولا كل من سمعها

(١) جامع بيان العلم وفضله ص١٢١-١٢٤ جـ٢ باختصار.

(٢) لم ينكر عمر رضى الله عنه على الصحابة روايتهم عن رسول الله ﷺ، إنما أنكر الإكثار منها عند عدم الحاجة، ولا يكون إكثار إلا عند عدم الحاجة إلى الإكثار.

عرف فقهها، فقد يرد الحديث مجملا ويستنبط معناه وتفسيره من غيره، فخشى عمر، أن يحمل حديث على غير وجهه، أو يؤخذ بظاهر لفظه والحكم بخلاف ما أخذ، ونحو من هذا، الحديث الآخر... عن معاذ قال كنت ردف رسول الله ﷺ، على حمار له يقال له عفير فقال: «**يا معاذ، أتدرى ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟ فقلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به، قلت أفلا أبشر الناس؟ قال: لا، فيتكلوا**[1]».

وأخبرنا الحسن بن أبى بكر، قال: قال لنا أبو على الطوماري كنا عند أبى العباس أحمد بن يحيى تغلب، فقال له رجل: إيش معنى قول النبى ﷺ لعلى وقد أقبل أبو بكر وعمر فقال: «**هذان سيدا كهول أهل الجنة**[2]، **لا تخبرهما يا على**»، قال أشفق من التقصير فى العمل. قال الشيخ أبو بكر الحافظ: وكذلك نهى عمر الصحابة أن يكثروا رواية الحديث، إشفاقًا على الناس أن ينكلوا عن العمل إنكالا على الحديث.

وفى تشديد عمر أيضًا على الصحابة فى رواياتهم ـ حفظ لحديث رسول الله ﷺ وترهيب لمن لم يكن من الصحابة أن يدخل فى السنن ما ليس منها، لأنه إذا رأى الصحابى المقبول القول، المشهور بصحبة النبى ﷺ، قد تشدد عليه فى روايته، كان هو أجدر أن يكون للرواية أهيب[3]. وبهذا يسلم حديث رسول الله ﷺ، فلا يتطرق إليه الكذب، ولا يزاد عليه ما ليس منه.

وروى الخطيب عن عبد الله بن عامر اليحصبى، قال: (سمعت معاوية على المنبر بدمشق يقول: أيها الناس، إياكم وأحاديث رسول الله ﷺ إلا حديثا كان

---

(١) ونحو هذا الحديث رواه البخارى فى صحيحه عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ ومعاذا رديفه على الرحل قال: يا معاذ بن جبل الحديث وقال فى آخر الحديث وأخبر بها معاذ عند موتة تأثما. انظر: فتح البارى ص٢٣٦ جـ١.

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد ص٣٧ حديث ٦٠٢ جـ٢ ذكر نحوه بإسناد صحيح وفيه زيادة (سيدا كهول أهل الجنة وشبابها بعد النبيين والمرسلين).

(٣) شرف أصحاب الحديث ص٩٧، ٩٨: ب.

يذكر على عهد عمر رضى الله عنه، فإن عمر كان يخيف الناس فى الله عز وجل»[1]. وإلى هذا المعنى الذى ذكرناه ذهب عمر فى طلبه من أبى موسى الأشعرى أن يحضر معه رجل يشهد أنه سمع من رسول الله ﷺ حديث السلام، لكن فعله على الوجه الذى بيناه من الاحتياط، لحفظ السنن والترهيب فى الرواية والله أعلم. انتهى[2]).

مما سبق يتبين لنا أن الصحابة جميعا كانوا يتثبتون فى الحديث، ويتأنون فى قبول الأخبار وأدائها، وكانوا لا يحدثون بشىء إلا وهم واثقون من صحة ما يروون، وقد حرصوا على المحافظة على الحديث بكل وسيلة تقضى إلى ذلك، فاتبعوا منهجا سليما يمنع الشوائب من أن تدخل السنة النبوية فتفسدها.

وقد حمل لواء هذه المحافظة والحرص على السنن جميع الصحابة، وتميز منهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وقد ظهر لنا مما روى عنه اهتمامه بالسنة النبوية وإجلاله للحديث الشريف. وإن الأخبار التى رويت عنه فى هذا الشأن ليدعم بعضها بعضا فى سبيل نشر العلم والحرص على سلامة السنة، ومن ثم ليس لأحد أن يرى تناقضا بين وصية عمر لأهل العلم والآثار الأخرى المروية عنه، فهو إذا طلب الإقلال من الرواية فإنما يطلبه من باب الاحتياط لحفظ السنن والترهيب فى الرواية، وأما من كان يتقن ما يحدث به ويعرف فقهه وحكمه فلا يتناوله أمر عمر رضى الله عنه، فكل ما ورد عن أمير المؤمنين إنما يدل على المحافظة على السنة ونشرها وتبليغها صحيحة، ولا يتيسر نشرها صحيحة ما لم يتثبت حاملوها من مروياتهم، والإقلال من الرواية مظنة عدم الوقوع فى الخطأ، ولهذا أمر به رضى الله عنه. وهذا ما رآه ابن عبد البر والخطيب البغدادى وغيرهما من أئمة الحديث، وإليه أذهب، وبه أقول، فالصحابة لم يزهدوا فى السنة، بل كان لهم الفضل الأول فى المحافظة عليها.

---

(١) انظر: نحو هذا القول عن معاوية فى كتاب رد الدارمى على بشر المريسى ص١٣٥، وتذكرة الحفاظ ص٧ جـ١.

(٢) شرف أصحاب الحديث ص٩٩: أ.

وقبل أن نختم هذا الفصل لا بد لنا من أن نتعرض لما روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من أنه حبس بعض الصحابة لأنهم أكثروا الرواية عن رسول الله عليه الصلاة والسلام! فنتناول هذا الخبر من حيث صحته، ثم لو صح هذا الخبر فكيف كان ذلك الحبس؟

روى الحافظ الذهبى[1] عن سعد بن إبراهيم عن أبيه أن عمر حبس ثلاثة: «ابن مسعود[2]، وأبا الدرداء[3]، وأبا مسعود الأنصارى[4]، فقال: قد أكثرتم الحديث عن رسول الله ﷺ.» هؤلاء ثلاثة من جلة أصحاب الرسول ﷺ، وأتقاهم وأورعهم. هل يعقل من مثل عمر بن الخطاب أن يحبسهم؟ وهل يكفى لحبسهم أنهم أكثروا من الرواية؟

إن المرء ليقف متسائلا أمام هذا الخبر ويعتريه الشك فيه، ويتبادر إلى نفسه أن يتساءل عن الحد الذى يمكن أن يعرف به الإقلال والإكثار! وقد ناقش الإمام ابن حزم هذا ورده، وقال: «هذا مرسل ومشكوك فيه من (شعبة) فلا يصح، ولا يجوز الاحتجاج به، ثم هو فى نفسه ظاهر الكذب والتوليد، لأنه لا يخلو عمر من أن يكون اتهم الصحابة، وفى هذا ما فيه، أو يكون نهى عن نفس الحديث، وعن تبليغ سنن رسول الله ﷺ إلى المسلمين، وألزمهم كتمانها وجحدها وأن لا يذكروها لأحد، فهذا خروج عن الإسلام، وقد أعاذ الله أمير المؤمنين من كل ذلك، ولئن كان سائر الصحابة متهمين بالكذب على النبى ﷺ، فما عمر إلا

---

(١) تذكرة الحفاظ ص٧ جـ١، وفيه سعيد بن إبراهيم والصواب سعد، وهو حفيد عبد الرحمن بن عوف كما فى تهذيب التهذيب، والمحدث الفاصل ص١٣٣: أ، وانظر مجمع الزوائد ص١٤٩ جـ١.

(٢) عبد الله بن مسعود الهذلى صحابى جليل من السابقين إلى الإسلام كان مخالطا لرسول الله ﷺ وصاحب وساده وسواكه ونعليه، وجهه عمر رضى الله عنه إلى الكوفة - وامتن على أهلها به - ليفقههم فى الدين ويعلمهم القرآن، وقد جمع القرآن فى عهد الرسول ﷺ، وقراءته مشهورة توفي سنة ٣٢هـ فى المدينة. انظر: بسط ترجمته فى سير أعلام النبلاء ص٣٣١-٣٥٧ جـ١.

(٣) أبو الدرداء عويمر بن مالك بن قيس صحابى أنصارى خزرجى كان حكيما، ولى القضاء لمعاوية فى دمشق بأمر عمر بن الخطاب، وهو أحد من حفظ القرآن فى عهد رسول الله ﷺ وتوفى فى الشام سنة ٣٢، انظر: تاريخ الإسلام للذهبى ص١٠٧ جـ٢.

(٤) أبو مسعود الأنصارى هو عقبة بن عمرو بن ثعلبة الأنصارى البدرى كان أصغر من شهد العقبة مع الأنصار، توفى فى الكوفة سنة ٣٩ أو ٤٠، انظر: خلاصة الخزرجى، وتقريب التهذيب ص٢٧ جـ٢.

واحد منهم، وهذا قول لا يقوله مسلم أصلا، ولئن كان حبسهم وهم غير متهمين لقد ظلمهم، فليختر المحتج لمذهبه الفاسد بمثل هذه الروايات الملعونة أى الطريقتين الخبيثتين شاء، ولا بد له من أحدهما...».

ثم قال: «وقد حدث عمر بحديث كثير، فإنه قد روى خمسمائة حديث ونيفا على قرب موته من موت النبى ﷺ، فهو كثير الرواية، وليس فى الصحابة أكثر رواية منه إلا بضعة عشر منهم[1]».

ولو سلمنا جدلا بصحة الرواية فهناك خلاف فى المحبوسين، فالذهبى يذكر ابن مسعود، وأبا الدرداء، وأبا مسعود الأنصارى، بينما يذكر ابن حزم - ابن مسعود، وأبا الدرداء، وأبا ذر، فهل تكرر الحبس من عمر؟ ولو تكرر لاشتهر ثم إن حادثة كهذه سيطير خبرها فى الآفاق من غير أن تحتمل الشك فى المحبوسين، لأنهم من أعيان الصحابة، ولو سلمنا أن العبرة فى الحادثة نفسها من حيث حبسه بعض الصحابة، دون نظر إلى أعيانهم وأشخاصهم، لأنهم أكثروا الرواية، قلنا: قد كان غير هؤلاء أكثر منهم حديثًا، ولم يردنا خبر عن حبسهم، فلا يعقل أن يحبس أمير المؤمنين بعضا دون بعض فى قضية واحدة، هم فيها سواء، وهى الإكثار من الحديث، معاذ الله أن يفعل هذا عمر رضى الله عنه، فيحبس هؤلاء ويترك أبا هريرة مثلا وهو أكثر حديثًا منهم. فقد روى عن أبى هريرة (٥٣٧٤) خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وسبعون حديثًا وعن ابن مسعود (٨٤٨) ثمانمائة وثمانية وأربعون حديثًا، وعن أبى الدرداء (١٧٩) مائة وتسعة وسبعون حديثًا، وعن أبى ذر (٢٨١) مائتان وواحد وثمانون حديثًا[2].

فإن قيل إن أبا هريرة لم يكثر من الرواية فى عهد عمر رضى الله عنه لأنه خشيه. فنقول لِمَ لَمْ يخشه هؤلاء؟ بل إن عمر نفسه سمح لأبى هريرة أن يروى عن رسول الله ﷺ، عندما عرف ورعه وخشيته من الله عز وجل، روى الذهبى

---

(١) الإحكام لابن حزم ص١٣٩ جـ٢ وما بعدها.

(٢) ذكر ذلك الإمام الحافظ بقى بن مخلد فى مسنده، انظر: البارع الفصيح فى شرح الجامع الصحيح لأبى البقاء الأحمدى الشافعى مخطوطة دار الكتب المصرية ص٩-١٣: ب.

عن أبى هريرة قال: «بلغ عمر حديثى فأرسل إلىَّ، فقال: كنت معنا يوم كنا مع رسول الله ﷺ فى بيت فلان؟ قلت: نعم، وقد علمت لأي شيء سألتنى. قال: ولم سألتك؟ قلت: إن رسول الله ﷺ، قال يومئذ: «**من كذب على متعمدا، فليتبوأ مقعده من النار**». قال: أما لا، فاذهب فحدث[1].» فهل يتصور إنسان أن يحبس عمر ابن مسعود وأبا الدرداء وأبا ذر أو أبا مسعود الأنصارى وقد عرف حفظهم وورعهم؟ بل إن أمير المؤمنين امتن على أهل العراق كما أسلفنا عندما أرسل إليهم عبد الله بن مسعود فكتب إلى أهل الكوفة؟ «إنى والله الذى لا إله إلا هو آثرتكم به على نفسى فخذوا منه[2]» وذكر عمر ابن مسعود فقال: كنيف ملئ علمًا، آثرت به أهل القادسية»[3] كيف يأمر الناس بالأخذ منه، ويشهد له بالعلم، ثم يحبسه!!؟

وما ورد على حبس ابن مسعود يرد على حبس الصحابة الباقين، ففيهم أبو الدرداء إمام الشام وقاضيها ومعلمها القرآن..

وبهذا البيان، لا يرقى إلى الصحة خبر حبس عمر للصحابة رضى الله عنهم، لأنهم أكثروا من الرواية عن رسول الله ﷺ، بل إنه يروى عن ابن مسعود أنه نهى عن الإكثار من الرواية، فهل يتصور منه أن ينهى عن شيء وهو يفعله؟ وقد روى عنه قوله: «ليس العلم بكثرة الحديث، ولكن العلم الخشية[4]».

وفى رواية سعد بن إبراهيم عن أبيه، التى ذكرها الخطيب، ما يدل على أنه استبقاهم فى المدينة حتى عرف لفظهم سواء. وهذه هى رواية الخطيب.

قال: بعث عمر بن الخطاب إلى عبد الله بن مسعود وإلى أبى الدرداء، وإلى أبى مسعود الأنصارى فقال: ما هذا الحديث الذى تكثرون عن رسول الله ﷺ؟ فحبسهم بالمدينة حتى استشهد لفظهم سواء[5]. فيكون هذا من باب تثبت عمر

---

(١) سير أعلام النبلاء ص٤٣٤ جـ٢.

(٢) و (٣) سير أعلام النبلاء ص٣٥١ جـ١، والكنيف: الوعاء.

(٤) مختصر كتاب المؤمل فى الرد إلى الأمر الأول ص٦.

(٥) شرف أصحاب الحديث ص٩٧: أ.

رضى الله عنه فى الحديث، وهذه الرواية تثبت أنه لم يزج بهم فى السجن، بل استبقاهم فى المدينة ريثما يتثبت من لفظهم، فإن صح هذا فلا ضير عليهم.

ومما يؤكد لنا أنه لم يحبس أحدا - وهو ما استنبطناه من مناقشة الروايات السابقة - ما يرويه الرامهرمزى عن شيخه ابن البرى من طريق سعد بن إبراهيم عن أبيه: (أن عمر بن الخطاب حبس بعض أصحاب النبى ﷺ، فيهم ابن مسعود وأبو الدرداء فقال: قد أكثرتم الحديث عن رسول الله ﷺ، قال أبو عبد الله ابن البرى: يعنى منعهم الحديث ولم يكن لعمر حبس[1]) فقد فسر ابن البرى الخبر تفسيرا جيدا وإن جاء مقتضبا، فهو يريد أنه منعهم كثرة الحديث، خوفا من أن لا يتدبر السامعون كلام رسول الله عليه الصلاة والسلام إذا كثر عليهم.

كل ما سبق ينفى صحة ما ورد من أخبار حول حبس عمر رضى الله عنه للصحابة لأنهم أكثروا الحديث عن رسول الله ﷺ.

وفى عهد التابعين ازداد النشاط العلمى لانتشار الصحابة فى الأمصار، ثم ما لبث التابعون أن تصدروا للرواية، ومع هذا سلكوا سبيل الصحابة، وساروا على نهجهم، فكانوا على جانب عظيم من الورع والتقوى، وليس بعيدا ما نقول، لأنهم تخرجوا فى مدارس الصحابة تلامذة رسول الله عليه الصلاة والسلام، فنسمع الشعبى - وهو أحد كبار التابعين الحفاظ الثقات - يقول: ليتنى أنفلت من علمى كفافا لا لى ولا علىَّ [2]. وكأنه يشعر بأنه أكثر من التحديث فيقول: «كره الصالحون الأولون الإكثار من الحديث، ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما حدثت إلا بما أجمع عليه أهل الحديث[3]». وكان شعبة بن الحجاج يقول: التدليس فى الحديث أشد من الزنا، ولأن أسقط من السماء إلى الأرض أحب إلىَّ من أن أدلس [4]. وفى رواية عنه أنه كان يقول: لأن أقع من فوق هذا القصر

---

(١) المحدث الفاصل ص١٣٣: أ.

(٢) جامع بيان العلم ص١٣٠ جـ٢ ويروى نحوه عن سفيان الثورى انظر: الكامل ص٥: ب. جـ٣ فى المجلد الأول فى دار الكتب المصرية تحت رقم (٩٥) مصطلح الحديث. وجامع بيان العلم وفضله ص١٢٩ جـ٢.

(٣) تذكرة الحفاظ ص٧٧ جـ١.

(٤) مقدمة التمهيد ص٥: ب.

ـ لدار حيـاله[1]ـ على رأسى أحب إلىَّ من أن أقـول لكم: قـال فـلان، لرجل ترونه، أنى قد سمعت ذاك منه ولم أسمعه[2].

ومنهم من كان يقـتصد فى رواية الحـديث على طلابه ليفـهموا مـا يحدثهم به ويعقـلوه ويتدبروه، ومن هذا مـا رواه خالد الحذاء قـال: كنا نأتى أبا قـلابة، فإذا حدثنا بثلاثة أحاديث قـال: قد أكثرت[3]، ويؤكد هذا ما قاله ابـن عبد البر: «إنما عابوا الإكثار خـوفا من أن يرتفـع التـدبر والتفهم، ألا ترى إلى ما حـكاه بـشر ابن الوليـد عن أبى يوسف قال: «سـألنى الأعـمش عن مسـألة وأنا وهو لا غيـر فأجبتـه، فقال لى: من أين قلت هذا يا يعقوب؟ فـقلت: بالحديث الذى حدثتنى أنت، ثم حدثته، فقال لى: يا يعقوب، إنى لأحفظ هذا الحديث من قبل أن يجمع أبواك[4] ما عـرفت تأويله إلى الآن[5]» وروى نحـو هذا: أنه جرى بين الأعـمش وأبى يوسف وأبـى حنيـفـة، فكان من قـول الأعـمش: «أنتم الأطبـاء ونحن الصيادلة[6]».

***

(١) هكذا النص والمعنى لدار قريبة منه.

(٢) مقدمة الجرح والتعديل ص١٧٤، ويروى نحوه عن مطرف بن طريف انظر: نفس المصدر ص٤٢.

(٣) انظر: المحدث الفاصل ص١٤٥، ١٤٦.

(٤) أى: من قبل أن يخلق، كناية عن أنه حفظه منذ زمن بعيد.

(٥) هكذا النص والأصواب أن تكون إلا.

(٦) جامع بيان العلم وفضله: ص١٣٠ جـ٢.

obeikandl.com

تثبت الصحابة والتابعين فى قبول الحديث

وكما احتاط الصحابة والتابعون فى التحديث، احتاطوا وتثبتوا فى قبول الأخبار عن رسول الله ﷺ وسنعرض هذا فيما يلى:

أ- تثبت أبى بكر الصديق فى قبول الأخبار:

كان أبو بكر رضى الله عنه قدوة حسنة للمسلمين فى المحافظة على السنة، والتثبت فى قبول الأخبار خشية أن يقع ويقع المسلمون فى خطأ يؤدى بهم إلى ما لاتحمد عقباه. وسأورد بعض الأخبار التى تبين لنا طريق الصحابة ومنهجهم فى ذلك.

١- قال الحافظ الذهبى: كان أبو بكر رضى الله عنه، أول من احتاط فى قبول الأخبار، فروى ابن شهاب عن قبيصة بن ذؤيب أن الجدة جاءت إلى أبى بكر تلتمس أن تورث، فقال: ما أجد لك فى كتاب الله شيئًا، وما علمت أن رسول الله ﷺ ذكر لك شيئًا، ثم سأل الناس فقام المغيرة فقال: سمعت رسول الله ﷺ يعطيها السدس، فقال له: هل معك أحد فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك فأنفذه لها أبو بكر رضى الله عنه[١].

٢- عن يونس «بن يزيد»[٢] عن الزهرى أن أبا بكر حدث رجلاً حديثًا فاستفهمه الرجل إياه، فقال أبو بكر هو كما حدثتك: أى أرض تقلنى إذا أنا قلت ما لم أعلم!!

وصح أن الصديق خطبهم فقال: (إياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور، والفجور يهدى إلى النار)[٣]. فأبو بكر يبين للناس جميعًا أنه لا يحدث

---

(١) تذكرة الحفاظ ص٣ جـ١ ومعرفة علوم الحديث ص١٥، والكفاية ص٢٦، وقد أخرجه الإمام مالك فى الموطأ ص٥١٣ جـ٢، كما أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه.

(٢) يونس بن يزيد بن أبى الجاد سمع من الزهرى انظر: ص١٥٣ جـ١ من تذكرة الحفاظ.

(٣) تذكرة الحفاظ ص٤ جـ١، وفى مقدمة التمهيد ص ١١ قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: إياكم والكذب فإنه مجانب الإيمان.

إلا بما يعلم ويثق منه، ثم إنه لم يكتف بالحيطة لنفسه، بل أمر الناس بذلك أيضًا، وحثهم على التثبت فيما يحدثون به أو يسمعونه، ومن ذلك ما رواه الذهبى من مراسيل ابن أبى مليكة: (أن الصديق جمع الناس بعد وفاة نبيهم فقال: إنكم تحدثون عن رسول الله ﷺ أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشد اختلافًا، فلا تحدثوا عن رسول الله شيئًا، فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه). ثم قال الحافظ الذهبى: (يدلك (هذا) أن مراد الصديق التثبت فى الأخبار والتحرى، لا سد باب الرواية، ألا تراه لما نزل به أمر الجدة ولم يجده فى الكتاب كيف سأل عنه فى السنن، فلما أخبره ما اكتفى حتى استظهر بثقة آخر، ولم يقل حسبنا كتاب الله كما تقوله الخوارج)[1].

ب - تثبت عمر بن الخطاب فى قبول الأخبار:

١ - روى الإمام البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال: «كنت فى مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور، فقال: استأذنت على عمر ثلاثًا فلم يؤذن لى فرجعت فقال: ما منعك؟ قلت: استأذنت ثلاثًا فلم يؤذن لى فرجعت، وقال رسول الله ﷺ: **«إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يؤذن له فليرجع»**. فقال: والله لتقيمن عليه ببينة[2]، أمنكم أحد سمعه من النبى ﷺ؟ فقال أبى ابن كعب: والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم، فكنت أصغر القوم، فقمت معه، فأخبرت عمر أن النبى ﷺ قال ذلك»[3] فقال عمر لأبى موسى: أما إنى لم أتَّهِمْكَ، ولكن خشيت أن يتقول الناس على رسول الله ﷺ[4].

٢ - روى مسلم عن المِسْوَر بن مخرمة قال: استشار عمر بن الخطاب الناس فى ملاص المرأة[5]، فقال المغيرة بن شعبة: شهدت النبى ﷺ قضى فيه

---

(١) تذكرة الحفاظ ص٣، ٤ جـ١.

(٢) وفى رواية مسلم: فقال عمر: أقم عليه البينة، وإلا أوجعتك.

(٣) صحيح البخارى بحاشية السندى ص٨٨ جـ٤، وأخرجه الإمام مسلم فى صحيحه ص١٦٩٤ جـ٣. كما أخرجه الإمام مالك فى الموطأ ص٩٦٤ جـ٢، وانظر: موجزًا فى الرسالة للإمام الشافعى ص٤٣٥.

(٤) موطأ الإمام مالك ص٩٦٤ جـ٢ والرسالة ص٤٣٥.

(٥) ملاص: هو جنين المرأة، والمعروف فى اللغة إملاص المرأة.. يقال أملصت به إذا وضعته قبل أوانه. انظر: هامش ص١٣١١ جـ٣ من صحيح مسلم.

بغرة[1]: عبد أو أمة. قال: فقال عمر ائتنى بمن يشهد معك. قال: فشهد له محمد بن مسلمة[2].

٣ـ روى صفوان بن عيسى: أخبرنا محمد بن عمار عن عبدالله بن أبى بكر قال: كان للعباس بيت فى قبلة المسجد، فضاق المسجد على الناس فطلب إليه عمر البيع فذكر الحديث[3] وفيه فقال عمر لأبى لتأتينى على ما تقول ببينة، فخرجا فإذا ناس من الأنصار قال: فذكرهم، قالوا: قد سمعنا هذا[4] من رسول الله ﷺ، فقال عمر: أما إنى لم أتهمكَ، ولكنى أحببت أن أتثبت[5].

---

(١) الغرة بضم الغين وراء مشددة مفتوحة: العبد والأمة، فكأنه عبر فى الحديث عن الجسم كله. كقوله رقبة، وأصل الغرة بياض فى جبهة الفرس، وغرة كل شىء أوله وأكرمه. انظر: هامش ص١٣١١ جـ٣ من صحيح مسلم، ولسان العرب مادة (غرر).

(٢) صحيح مسلم ص١٣١١ جـ٣.

(٣) وفيه كما رواه ابن سعد عن سالم أبى النضر أن عمر قال له: اختر منى إحدى ثلاث: إما أن تبيعنيها بما شئت من بيت مال المسلمين، وإما أن أخططك حيث شئت من المدينة وأبنيها لك من بيت مال المسلمين، وإما أن تصدق بها على المسلمين فنوسع بها فى مسجدهم، فقال: لا ولا واحدة منها، فقال عمر: بينى وبينك من شئت، فقال: أبى بن كعب. فانطلقا إلى أبى، فقصا عليه القصة، فقال أبى: إن شئتما حدثتكما بحديث سمعته من النبى ﷺ، فقال: حدثنا. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله أوحى إلى داود أن ابن لى بيتًا أذكر فيه، فخط له هذه الخطة خطة بيت المقدس، فإذا تربيعها بيت رجل من بنى إسرائيل، فسأله داود أن يبيعه إياه، فأبى فحدث داود نفسه أن يأخذه منه فأوحى الله إليه أن يا داود أمرتك أن تبنى لى بيتًا أذكر فيه، فأردت أن تدخل فى بيتى الغصب، وليس من شأنى الغصب، وإن عقوبتك أن لا تبنيه. قال: يا رب فمن ولدى. قال: من ولدك**». قال: فأخذ عمر بمجامع ثياب أبى بن كعب وقال: جئتك بشىء فجئت بما هو أشد منه، لتخرجن مما قلت. فجاء يقوده حتى أدخله المسجد فأوقفه على حلقة من أصحاب رسول الله ﷺ فيهم أبو ذر، فقال: إنى نشدت الله رجلاً سمع رسول الله ﷺ يذكر حديث بيت المقدس حين أمر الله داود أن يبنيه إلا ذكره، فقال أبو ذر: أنا سمعته من رسول الله ﷺ وقال آخر: أنه سمعته، وقال آخر: أنا سمعته يعنى من الرسول ﷺ. قال: فأرسل عمر أبيًا، قال: وأقبل أبى على عمر فقال: يا عمر أتتهمنى على حديث رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: يا أبا المنذر، لا والله ما اتهمتك عليه، ولكنى كرهت أن يكون الحديث عن رسول الله ﷺ ظاهرًا، وقال عمر للعباس: اذهب فلا أعرض لك فى دارك، فقال العباس: أما إذا فعلت هذا، فإنى قد تصدقت بها على المسلمين أوسع بها عليهم فى مسجدهم، فأما وأنت تخاصمنى فلا، فخط عمر لهم دارهم التى هى لهم اليوم، وبناها من بيت مال المسلمين.

انظر: طبقات ابن سعد ص١٣، ١٤ قسم ١ جـ٤ وص٢٠٣ قسم ١ جـ٣.

(٤) أى حديث بناء بيت المقدس الذى ذكره أبى بن كعب.

(٥) تذكرة الحفاظ ص٨ جـ١ وانظر: طبقات ابن سعد ص١٣، ١٤ قسم ١ جـ٤.

٤ ـ عن مالك بن أوس قال: سمعت عمر يقول لعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد: نشدتكم بالله الذى تقوم السماء والأرض به أعلمتم أن رسول الله ﷺ قال: «**إنا لا نُورَثُ ما تركنا صدقة**»؟ قالوا: اللهم نعم[١].

جـ ـ تثبت عثمان رضى الله عنه فى الحديث:

عن بسر بن سعيد قال: أتى عثمان المقاعد، فدعا بوضوء، فتمضمض واستنشق ثم غسل وجهه ثلاثًا، ويديه ثلاثًا ثلاثًا، ثم مسح برأسه، ورجليه ثلاثًا ثلاثًا، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ هكذا يتوضأ، يا هؤلاء أكذلك؟ قالوا: نعم، لنفر من أصحاب رسول الله ﷺ عنده[٢].

د ـ تثبت على بن أبى طالب رضى الله عنه فى الحديث:

عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا نفعنى الله بما شاء منه. وإذا حدثنى غيره استحلفته، فإذا حلف لى صدقته، وإن أبا بكر حدثنى، وصدق أبو بكر، أنه سمع النبى عليه الصلاة والسلام قال: «**ما من رجل يذنب ذنبًا فيتوضأ فيحسنُ الوضوءَ، ويصلى ركعتين فيستغفر الله عز وجل إلا غَفَرَ له**»[٣].

* * *

تلك آثار تبين منهج الصحابة فى التثبت والتأكد من الأخبار، وهذا لا يغنى أبدًا أن الصحابة اشترطوا لقبول الحديث، أن يرويه راويان فأكثر، أو أن يشهد الناس على الراوى أو أن يستحلف، فإذا لم يحصل شىء من هذا رد خبره!! بل كان الصحابة يتثبتون فى قبول الأخبار، ويتبعون الطريقة التى ترتاح إليها ضمائرهم، فأحيانًا يطلب عمر سماع آخر، وأحيانًا يقبلُ الخبر من غير ذلك، ولا يقصد من وراء عمله إلا حمل المسلمين على جادة التثبت العلمى والتحفظ فى دين الله حتى

---

(١) مسند الإمام أحمد ص٢٢٨ وص١٨٦، ١٨٧ جـ١ بإسناد صحيح.

(٢) مسند الإمام أحمد ص٢٧٢ جـ١ بإسناد صحيح.

(٣) المرجع السابق ص١٥٤ و١٧٤ و١٧٨ جـ١ ونحوه فى الكفاية ص٢٨، وانظر: تذكرة الحفاظ ص١٠ جـ١ ومقدمة معرفة علوم الحديث، ورواه مسلم.

لا يتقول أحد على الرسول ﷺ مـا لم يقل، ويتضح هذا فى قول عمر رضى الله عنه عندما رجع أبو موسى الأشعرى مع أبى سعيـد الخدرى وشهد له، قال عمر: «أما إنى، لم أتهـمك، ولكنى خشيت أن يتقـول الناس على رسول الله ﷺ»[1]. ويظهر ذلك أيضًا من قـول الذهبى بعد أن روى قصة أبى مـوسى: «أحب عمر أن يتأكد عنده خبر أبى موسى بقول صاحب آخر ففى هذا دليل على أن الخبر إذا رواه ثقـتان كـان أقوى وأرجح مما انفـرد به واحد، وفـى ذلك حض على تكثيـر طرق الحـديث لكى يرتقى عن درجـة الظن إلى درجـة العلم، إذ الواحـد يجـوز عليـه النسيان والوهم، ولا يكادُ يجوز ذلك على ثقتين لم يخالفهما أحد»[2].

وكذلك ما قاله بعـد إيراد طريقة الصديق فى التثبت: «إن مراد الـصديق التثبت فى الأخبار والتحرى، لا سد باب الرواية»[3].

وكما طلب الصحابة من الراوى شهادة غيـره أيضًا، قبلوا أحاديث كثيرة برواية الآحاد وبنوا عليها أحكامهم.

ومن الغريب أن يجعل بعض المتطرفين فى الإسلام عمل الصحابة هذا دستورًا فى قبول الأخـبار ولا يجعلون قبول الصـحابة خبر الآحاد دسـتورًا لهم أيضًا بل يردونه ولا يقبلونه، وقد حكى ذلك الحافظ أبو بكر محـمد بن أبى عثمان الحازمى[4] عن بعض متأخرى المعتزلة، كمـا حكى عن بعض أصحاب الحديث، قال شيخ الإسلام (ابن حجر): «وقـد فهم بعضهم ذلك من خلال كـلام الحاكم فى (علوم الحديث)، وفى (المدخل)... وأعـجب من ذلك ما ذكـره أبو حـفص عمـر بن عبـد المجيـد الميانجى[5] فى كتاب «ما لا يسع المحدث جهله» «شَرطُ الشيـخين فى صحيحيهما أن لا يدخلا فيه»[6] إلا ما صح عندهما، وذلك ما رواه عن النبى ﷺ اثنان فصاعدا،

---

(١) موطأ مالك ص٩٦٤ جـ٢ والرسالة ص٤٣٥ وتوجيه النظر ص١٦.

(٢) تذكرة الحفاظ ص٦، ٧ جـ١.

(٣) المرجع السابق ص٤ جـ١.

(٤) المتوفى سنة (٥٨٤هـ).

(٥) المتوفى سنة (٥٨٠هـ).

(٦) هكذا فى التدريب والأصوب أن يقول «فيهما».

وما نقله عن كل واحد من الصحابة أربعة من التابعين فأكثر. وأن يكون[1] عن كل واحد من التابعين أكثر من أربعة» انتهى.

قال شيخ الإسلام: «وهو كلام من لم يمارس الصحيحين أدنى ممارسة، فلو قال قائل ليس فى الكتابين (البخارى ومسلم) حديث واحد بهذه الصفة لما أبعدَ، وقال ابن العربى فى شرح الموطأ: كان مذهب الشيخين: (البخارى ومسلم) أن الحديث لا يثبت حتى يرويه اثنان، قال: وهو مذهب باطل، بل رواية الواحد عن الواحد صحيحة إلى النبى ﷺ»[2].

ويقول الدكتور السباعى: «وانتقل هذه الفهم ـ (أن لا يقبل الصحابة إلا ما رواه اثنان) ـ إلى كثير ممن كتب فى تاريخ التشريع الإسلامى وتاريخ السنة فى العصر الحديث، فأصبح عندهم قضية مسلمة لا يذكرون غيرها، وممن ذهب إلى هذا أساتذتنا الأجلاء مؤلفو مذكرة تاريخ التشريع الإسلامى فى كلية الشريعة بالأزهر فقد ذكروا فى باب شروط الأئمة للعمل بالحديث أن هذا كان شرط أبى بكر، وعمر، وعلى، للعمل بالحديث»[3].

إن تثبت الصحابة فى بعض الأحاديث بطلب راويين للخبر لم يكن شرطًا لقبول جميع المرويات، بل قبلوا أخبارًا كثيرة عن مخبر واحد، وعملوا بها فى مواضع كثيرة، مما يدل على أنهم رضى الله عنهم كانوا يطلبون الراوى الثانى لمجرد التثبت والتأكد، لا لأن الخبر لا يثبت عندهم إلا براويين، والأخبار التى قبلها الخلفاء الأربعة وغيرهم برواية آحاد أكثر بكثير من الأخبار التى طلبوا فيها راويين، وإليكم بعض تلك الآثار:

---

(١) هكذا فى التدريب، والأصوب أن يقول: «وكان رواته».

(٢) تدريب الراوى ص٢٧. وقد قال باشتراط رجلين عن رجلين فى شرط القبول إبراهيم بن إسماعيل ابن علية (وهو إسماعيل بن مقسم الأسدى حافظ من الطبقة الثامنة نسب إلى أمه، وهو ثقة كما فى التقريب) توفى سنة ١٩٣هـ وهو من الفقهاء المحدثين، إلا أنه مهجور القول عند الأئمة لميله إلى الاعتزال، وقد كان الشافعى يرد عليه ويحذر منه. انظر: تدريب الراوى ص٢٨.

(٣) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ص٨١، ذكر الأساتذة مؤلفو تاريخ التشريع الإسلامى بالحرف الواحد «أما الآحاد فلمقام الشبهة فى ثبوته اختلفت طرق الصحابة فى الأخذ به، فلم يكن أبو بكر ولا عمر يقبلان من الأحاديث إلا ما شهد اثنان أنهما سمعاه من رسول الله ﷺ» انظر: الصفحة ٩٣ من تاريخ التشريع الإسلام للسبكى وزملائه وهذا التعميم غير مطابق للواقع كما سترى.

١ ـ عن سعيد بن المسيب: «أن عمر بن الخطاب كان يقول: الدية للعاقلة، ولا ترث المرأة من دية زوجها شيئًا. حتى أخبره الضحاك بن سفيان أن رسول الله كتب إليه: أن يورثَ امرأة أشْيَم الضِّبابيّ من ديته، فرجع إليه عمر»[١].

٢ ـ عن طاوس: «أن عمر قال: أذكِّرُ الله امرأ سمع من النبى فى الجنين شيئًا؟ فقام حَمَلُ بن مالك بن النابغة، فقال: كنت بين جاريتين لى، يعنى ضرتين، فضربت إحداهما الأخرى بمسطح[٢]، فألقت جنينًا ميتًا، فقضى فيه رسول الله بغرة، فقال عمر: لو لم أسمع فيه لقضينا بغيره»[٣].

٣ ـ «عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام. حتى إذا كان بسرغ لقيه أهل الأجناد[٤] أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام»[٥].

واستشار المهاجرين والأنصار ومشيخة قريش من مهاجرة الفتح، واختلفت آراؤهم حتى جاءه عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيبًا فى بعض حاجته، فقال: «إن عندى من هذا علمًا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا فرارًا منه»**[٦] فرجع عمر رضى الله عنه لخبر عبد الرحمن رضى الله عنهم جميعًا.

٤ ـ روى الإمام الشافعى عن الإمام مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه (على زين العابدين): أن عمر ذكر المجوس فقال: ما أدرى كيف أصنع فى أمرهم؟ فقال

---

(١) الرسالة ص٤٢٦، الفقرة ١١٧٢.

(٢) المسطح: عود من أعواد الخباء والفسطاط.

(٣) الغرة: العبد أو الأمة. الرسالة ص٤٢٦، ٤٢٧، الفقرة ١١٧٤.

(٤) سرغ هى قرية فى طرف الشام مما يلى الحجاز. والأجناد: المراد بها هنا مدن الشام الخمسة، وهى فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين. قال الإمام النووى: هكذا فسروه واتفقوا عليه، ومعلوم أن فلسطين اسم لناحية بيت المقدس، والأردن اسم لناحية بيسان وطبرية وما يتعلق بهما، ولا يضر: إطلاق اسم المدينة عليه. انظر: هامش الصفحة ١٧٤٠ فى جـ٤ من صحيح مسلم.

(٥) صحيح الإمام مسلم ص ١٧٤٠ جـ٤ ولخص الخبر الإمام الشافعى فى رسالته ص ٤٢٩ فقرة ١١٨٠، وانظر: الإحكام لابن حزم ص١٣ جـ٢.

(٦) صحيح الإمام مسلم ص ١٧٤٠ جـ٤.

له عبد الرحمن بن عوف: أشهد لسمعت رسول الله يقول: «**سنوا بهم سنة أهل الكتاب**»[1].

٥- وقبل عمر بن الخطاب خبر سعد بن أبى وقاص فى المسح على الخفين وأمر ابنه عبد الله ألا ينكر عليه وقال له: (إذا حدثك سعد بشيء فلا ترد عليه، فإن رسول الله ﷺ كان يمسح على الخفين)[2].

وفى رواية (إذا حدثك سعد عن رسول الله ﷺ شيئًا فلا تسأل عنه غيره)[3]. وهذا دليل واضح على قبول خبر الآحاد، حتى إن عمر ينهى ابنه عن أن يسأل غير سعد إذا حدثه سعد عن رسول الله. ولو كان شرط عمر عدم قبول الخبر إلا عن راويين لأمر ابنه أن يطلب مع سعد راويًا آخر، ولم ينهه عن سؤال غيره.

٦- وأراد رجم مجنونة حتى أعلم بقول رسول الله ﷺ: «**رفع القلم عن ثلاث**»[4]، فأمر ألا ترجم.

وأمر برجم مولاة حاطب، حتى ذكره عثمان بأن الجاهل لا حد عليه، فأمسك عن رجمها[5].

٧- وكان يفاضل بين ديات الأصابع حتى بلغه عن النبى ﷺ أمره بالمساواة بينها، فترك قوله وأخذ بالمساواة[6].

---

(١) الرسالة: ٤٣٠ فقرة ١١٨٢ وانظر: الكفاية فى علم الرواية ص٢٧ والإحكام ص١٣ جـ٢.

(٢) مسند الإمام أحمد ص١٩١ حديث ٨٧ جـ١ وفى ص ١٩٢ مختصرًا وكلاهما بإسناد صحيح.

(٣) مسند الإمام أحمد ص١٩٢ حديث ٨٨ جـ١ بإسناد صحيح.

(٤) أخرج الإمام أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه والحاكم عن السيدة عائشة عن رسول الله ﷺ «**رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ وعن المبتلى حتى يبرأ وعن الصبى حتى يكبر**» الجامع الصغير ص٢٣ جـ٢ بإسناد صحيح. وأخرج الإمام أحمد وأبو داود والحاكم عن عمر وعلى رضى الله عنهما عن الرسول ﷺ «**رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبى حتى يحتلم**». المرجع نفسه.

(٥) الإحكام لابن حزم ص١٣ جـ٢.

(٦) الإحكام لابن حزم ص١٣ جـ٢ وانظر: الرسالة ص٤٢٢ فقرة ١١٦٠، إلا أن الشافعى ينص على أن الصحابة بعد وفاة عمر رضى الله عنه وجدوا كتاب آل عمرو بن حزم وفيه أن رسول الله ﷺ قال: «**وفى كل أصبع مما هنا لك عشر من الإبل**» فصاروا إليه. انظر: الفقرة (١١٦٢) من الصفحة ٤٢٢.

٨- وقد اشتهر خبر تناوب عمر رضى الله عنه وجاره فى حضور حلقات الرسول ﷺ، وفيه يقول عمر: (ينزل يومًا، وأنزل يومًا، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحى وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك)[١] وهذا إقرار من أمير المؤمنين رضى الله عنه بقبول خبر جاره، ولا فرق بين جاره وغيره ممن تقبل روايته.

وهكذا نرى من تلك الأخبار وغيرها أن عمر رضى الله عنه لم يشترط لقبول الأخبار راويين، وما صدر منه مع أبى موسى رضى الله عنه بَيَّنَ سببه بنفسه كما سبق أن ذكرت ذلك، وكان من باب الاحتياط والتثبت، لا من باب عدم قبول الخبر إلا من راويين.

ومثل هذا يقال فى بقية الأخبار التى طلب فيها راويين.

وأما ما ذكر عن موقف أبى بكر رضى الله عنه، وتثبته فى قبول الأخبار، فإنه لا يعدو باب الاستظهار والاستيثاق، ثم إنه لم يرو عنه أنه طلب راويًا آخر إلا فى تلك الحادثة التى ذكرها الإمام الذهبى، وقد ردها ابن حزم[٢] وأعلها بالانقطاع، فهى لا تصلح مقياسًا صحيحًا لشرط أبى بكر فى قبول الأخبار، وهو الذى قبل أخبارًا كثيرة برواية مخبر واحد.

وقد سبق أن بينت منهجه فى حكمه وقضائه كما ذكره ابن القيم، ولم يذكر أنه كان يطلب ممن يأتيه بالخبر شاهدًا على ما يقول... وقد قبل خبر عائشة رضى الله عنها فى كفن الرسول ﷺ[٣].

وأما عثمان رضى الله عنه فإنه لم يطلب راويين لكل خبر، وكل ما صدر عنه أنه استشهد بعض من حضر وضوءه، ليؤكد أنه توضأ وضوء رسول الله ﷺ. وقد

---

(١) فتح البارى ص١٩٥ جـ١.

(٢) انظر: الإحكام لابن حزم ص١٤١ جـ٢.

(٣) الإحكام لابن حزم ص١٢ جـ٢.

ثبت عنه أنه عمل بأخبار الآحاد، فقد سأل الفُرَيْعَة بنت مالك بن سنان ـ أخت أبى سعيد الخدرى ـ عن عدتها لوفاة زوجه[1]، وقضى بخبرها.

وأما ما روى عن على رضى الله عنه من استخلاف مخبريه، فإن بعض هذا لم يكن منهجه وديدنه فى قبول جميع الأخبار، بل قبل بعض الأخبار من غير أن يستحلف الرواة، فقبل أخبار أبى بكر ـ كما ذكر هو نفسه ـ ولا فرق بين أبى بكر رضى الله عنه وغيره ممن تقبل روايته، كما عمل بخبر المقداد بن الأسود فى حكم المذى[2] من غير أن يحلفه.

وهكذا يتبين لنا أن الخلفاء الأربعة لم تكن لهم شروط خاصة لقبول الأخبار، وأن كل ما روى عنهم مما يوهم ذلك لا يعدو التثبت والاستظهار، وقد قبلوا أخبار الآحاد كما قبلها غيرهم من عامة الصحابة وعلمائهم. وكل ما صدر عنهم كان فى سبيل المحافظة على السنة الطاهرة.

هـ ـ ولم يكن التابعون وأتباعهم أقل اهتمامًا من الصحابة بالاحتياط لقبول الحديث، فكانوا يتثبتون من الراوى بكل وسيلة تطمئن إليها قلوبهم، وإن من يتتبع تاريخ الرواة، وكيفية تحملهم الحديث الشريف ليدرك تمامًا جهود التابعين وأتباعهم، تلك الجهود التى بذلوها لنقل السنة إلى خلفهم. وإليكم بعض أخبارهم فى هذا الموضوع.

قيل لمسعر بن كِدام: ما أكثر تشكك؟ قال: تلك محاماة عن اليقين[3].

وكان يزيد بن أبى حبيب محدث الديار المصرية يقول: إذا سمعتَ الحديث فانشده كما تنشد الضالة، فإن عرف فخذه، وإلا فدعه[4].

---

(١) أخرج حديث فريعة أحمد وأصحاب السنن الأربعة وصححه الترمذى والذهلى. انظر: سبل السلام ص٢٠٣ جـ٣، وانظر: الكفاية ص٢٧ والإحكام ص١٥ جـ٢.

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد ص٣٩ حديث ٦٠٦ وص٤٦ حديث ٦١٨ جـ٣ بإسناد صحيح، وفتح البارى ص٢٩٤ و٣٩٤ جـ١، وصحيح مسلم ص٢٤٧ حديث ١٧- ١٩ جـ١.

(٣) المحدث الفاصل ص١٣٢: ب.

(٤) الجرح والتعديل ص١٩ جـ١.

فلم يكن للتابعين وأتباعهم شروط خاصة فى قبول الرواية، ولم يُرو عن أحدهم أنه اشترط لقبول الخبر راويين أو أكثر، بل كانوا يتحملون عن كل من توافرت فيه شروط التحمل والأداء، إلى جانب العدالة التى أجمع عليها المحدثون، فإذا ما سقطت عدالة راو طرحوا أخباره وامتنعوا عن الأخذ عنه. ومع هذا كانوا يتثبتون فى قبول الأخبار بكل وسيلة تطمئن إليها قلوبهم، لأن وصايا الصحابة وكبار التابعين لاتزال قائمة فى نفوسهم، تذكرهم أن هذا الحديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم.

وكانوا يرون الأمانة فى الذهب والفضة أيسر من الأمانة فى الحديث[1]، فنسمع عن سليمان بن موسى أنه لقى طاوسًا فقال له: «إن رجلاً حدثنى بكيت وكيت، فيقول له: إن كان مليّاً فخذ منه»[2]. وكان ابن عون يقول: لا يؤخذ هذا العلم إلا ممن شهد له بالطلب[3]. ويسمع شعبة بن الحجاج عبد الله بن دينار فى الولاء وهبته عن عبد الله بن عمر، فيستحلفه: هل سمعه من ابن عمر؟ فيحلف له[4]. ويحدث الحكم عن سعيد بن المسيب فى دية اليهودى والنصرانى والمجوسى، فيقول له شعبة: أنت سمعته من سعيد بن المسيب؟ فيقول: لو شئت سمعت من ثابت الحداد، قال شعبة: فأتيت ثابتًا الحداد فحدثنى عن سعيد بن المسيب عن عمر مثله[5]. فلا يمكننا أن نحكم على شعبة أنه لم يكن يقبل رواية أحد إلا بعد تحليفه، أو الاستيثاق برواية آخر معه. بل كل هذا كان من باب التثبت والاستيثاق والتأكد مما يسمون، حرصًا منهم على حفظ الحديث النبوى الشريف.

---

(١) انظر: الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص١٦٠: أ.

(٢) الجرح والتعديل ص٢٧جـ١. (٣) المرجع السابق ص٢٨ جـ١.

(٤) تقدمة الجرح والتعديل ص ١٧٠.

(٥) المرجع السابق ص١٧٠ ومن هذا الباب ما كان يتأكد منه رجال الحديث فقد قال الليث بن سعد: قدم علينا رجل من أهل المدينة يريد الإسكندرية مرابطًا، فنزل على جعفر بن ربيعة، قال: فعرضوا له بالحملان، وعرضوا له بالمعونة فلم يقبل، واجتمع هو وأصحابنا يزيد بن أبى حبيب وغيره فأقبل يحدثهم: حدثنى نافع عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ، قال: فجمعوا تلك الأحاديث وكتبوا بها إلى ابن نافع، وقالوا له: إن رجلا قدم علينا وخرج إلى الإسكندرية مرابطًا وحدثنا، فأحببنا ألا يكون بيننا وبينك فيها أحد، فكتب إليهم، والله ما حدث أبى من هذا بحرف قط، فانظروا عمن تأخذون واحذروا قصاصنا ومن يأتيكم.
انظر: مقدمة التمهيد ص١٤: ب.

كيف روى الحديث فى ذلك العصر..

باللفظ أم بالمعنى..؟

رأينا كيف كان الصحابة والتابعون وأتباعهم يتثبتون فى قبول الأخبار، وعرفنا ورعهم وخشيتهم عندما يروون حديثًا عن رسول الله ﷺ، فكان أحدهم لا يروى الحديث إلا بعد الاستيثاق من ضبط حروفه وفهم معناه، وكان الواحد منهم إذا سئل يود لو أن أخاه كفاه مؤونة السؤال، حتى إن بعضهم كان يأبى أن يروى شيئًا عن رسول الله ﷺ مخافة الزيادة والنقصان، ومن هذا ما يرويه العلاء بن سعد ابن مسعود، قال: «قيل لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ: مالك لا تحدث كما يحدث فلان وفلان؟ فقال: ما بى ألا أكون سمعت مثل ما سمعوا أو حضرت مثل ما حضروا، ولكن لم يدرس الأمر بعد والناس متماسكون، فأنا أجد من يكفينى، وأكره التزيد والنقصان فى حديث رسول الله ﷺ»[1].

وإلى جانب ما رويناه من أخبار حول تثبت الصحابة والتابعين فى رواية الحديث، ومنهاجهم فى الإقلال من الرواية مخافة الوقوع فى الخطأ ـ لابد لنا من أن نتتبع بعض أخبارهم لنرى كيف كانوا يروون الحديث النبوى؟ وهل كانوا يحافظون على لفظ الرسول ﷺ، أو كانوا يروون ما يسمعون بألفاظ من عندهم دون أن يغيروا معنى ما سمعوا؟

إذا استعرضنا تلك الأخبار رأينا كثيرًا من الصحابة حرصوا على نقل الحديث بألفاظه، وبعضهم ترخص عند الضرورة فى روايته بالمعنى، وكما روى بعض الصحابة الحديث باللفظ وبعضهم بالمعنى نرى التابعين أيضًا قد نهجوا نهج الصحابة رضوان الله عليهم، ولكن مما لا شك فيه أن جميع الصحابة حرصوا على أداء الحديث كما سمعوه من الرسول عليه الصلاة والسلام، حتى إن بعضهم ما كان يرضى أن يبدل حرفًا بحرف، أو كلمة مكان كلمة، أو يقدم كلمة على

---

(١) الكفاية ص ١٧٢.

أخرى وردت فى الحديث قبلها، وقد روى عن عمر رضى الله عنه، أنه كان يقول: «من سمع حديثًا فحدث به كما سمع فقد سلم»[1] وروى نحوه عن عبد الله بن عمر وزيد بن أرقم.

وقد اشتهر من بين الصحابة الذين كانوا يتشددون فى الحرص على لفظ الرسول ﷺ ـ عبد الله بن عمر. روى محمد بن سوقة قال: (سمعت أبا جعفر يقول: كان عبد الله بن عمر إذا سمع من نبى الله ﷺ شيئًا، أو شهد معه مشهدًا، لم يقصر دونه أو يعدوه، قال: فبينما هو جالس وعبيد بن عمير يقص على أهل مكة إذ قال عبيد بن عمير: مثل المنافق كمثل الشاة بين الغنمين، إن أقبلت إلى هذه الغنم نطحتها، وإن أقبلت إلى هذه نطحتها، فقال له عبد الله بن عمر: ليس هكذا، فغضب عبيد بن عمير، وفى المجلس عبد الله بن صفوان، فقال يا أبا عبد الرحمن، كيف قال رحمك الله؟ فقال: قال: مَثَلُ المنافقِ مثلُ الشاةِ بين الرَّبيضَيْنِ، إن أقبلت إلى ذا الربيض نطحتها، وإن أقبلت إلى ذا الربيض نطحتها. فقال له: رحمك الله هما واحد. قال: كذا سمعت[2]).

وروى ابن عمر حديث بنى الإسلام على خمس، فأعاده رجل فقال له ابن عمر: «لا، اجعل صيام رمضان آخرهن كما سمعت من فِىّ رسول الله ﷺ»[3] ولهذا نرى فى بعض الأحاديث، قول الراوى ـ كذا وكذا ـ لا أدرى بأيهما بدأ. أو أيهما قال قبل، ونحو ذلك. وهذا تنبيه من الراوى إلى أنه أدرك الحديث وفهمه، ولكنه لم يتأكد من ترتيب اسمين فيه أو كلمتين فيبين موضع شكه وأن الشك منه ليس فى أصل الحديث، ومن هذا ما رواه خالد بن زيد الجهنى أن رسول الله ﷺ قال: قريش والأنصار، وأسلم وغفار ـ أو غفار وأسلم[4] ـ . . .

---

(١) المحدث الفاصل ص ١٢٧: ب والكفاية ص ١٧٢.

(٢) مسند الإمام أحمد ص ٢٩٧ حديث ٥٥٤٦ جـ٧ وانظر: حديث ٥٣٥٩ ونحوه فى ص ٢٠ حديث ٥٦١٠ جـ٨.

(٣) الكفاية ص ١٧٦.

(٤) المرجع السابق ص ١٧٧.

وتشدد بعض الرواة فى المحافظة على نص الحديث بألفاظه، فمنع زيادة حرف واحد، أو حذفه وإن كان لا يغير المعنى، ومن هذا ما رواه سفيان قال: حدثنا الزهرى أنه سمع أنس بن مالك يقول: «نهى رسول الله ﷺ عن الدباء والمزفت أن ينتبذ فيه، فقيل لسفيان أن ينبذ فيه؟ فقال: لا، هكذا قاله لنا الزهرى «ينتبذ فيه»[1].

وكان بعض الرواة شديدى الحرص على اللفظ الذى سمعوه، فلا يخففون حرفًا ثقيلاً، ولا يثقلون حرفًا خفيفًا، ولا يبدلون حركات الحروف التى يسمعونها، بل يروونها كما سمعوها، وإن كان ذلك التغيير لا يبدل معناها، نحو (نما - نمى) فى حديثه ﷺ: «**ليسَ الكاذبُ مَنْ أصلحَ بينَ الناسِ فقال خيرًا أو نمّى خيرًا**». قال حماد: سمعت هذا الحديث من رجلين، فقال أحدهم نما خيرًا (خفيفة) وقال الآخر نمى خيرًا (مثقلة)[2].

وبلغ من حرص بعض المحدثين على لفظ الحديث أنهم لم يكونوا يحدثون طلابهم إلا إذا كتبوا عنهم، إذ كانوا يكرهون أن يحفظوا عنهم، خوفًا من الوهم عليهم، من هذا ما يرويه الخطيب البغدادى بسنده عن ابن عيينة قال: «قال محمد ابن عمرو: لا والله لا أحدثكم حتى تكتبوه، إنى أخاف أن تكذبوا علىَّ - وفى رواية - أخاف أن تغلطوا علىَّ»[3].

ومنه ما رواه الرامهرمزى بسنده عن طلحة بن عبد الملك، قال: «أتيت القاسم وسألته عن أشياء، فقلت: أكتبها؟ قال: نعم، فقال لابنه: انظر فى كتابه، لا يزيد علىَّ شيئًا، قلت: يا أبا محمد إنى لو أردت أن أكذب لم آتك، قال: إنى لم أرد، إنما أردت إن أسقطت شيئًا يعدله لك»[4].

وكان الأعمش يقول: «كان هذا العلم عند أقوام، كان أحدهم لأن يخرَّ من السماء أحب إليه من أن يزيد فيه واوًا، أو ألفًا، أو دالاً...»[5].

---

(١) الكفاية ص ١٧٨.
(٢) المصدر السابق ص ١٨٠، ١٨١.
(٣) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٠١: أ.
(٤) المحدث الفاصل ص ١٢٨: أ.
(٥) الكفاية ص ١٧٨.

وقد أدرك ابن عون ثلاثة ممن يشددون في رواية الحديث على حروفه، وهم القاسم بن محمد بالحجاز، ومحمد بن سيرين بالبصرة، ورجاء بن حيوة بالشام[1]، وكان إبراهيم بن ميسرة وطاوس يحدثان الحديث على حروفه[2]، وكان طاوس يعد الحديث حرفًا حرفًا[3]. ويروى عن ابن عيينة قوله «محدثو الحجاز ابن شهاب ويحيى بن سعيد وابن جريج يجيئون بالحديث على وجهه»[4]، وكان مالك بن أنس يحرص على أداء حديث رسول الله ﷺ على حروفه[5].

وإلى جانب هذه الأخبار نرى أن أخبارًا أخرى تدل على أن بعض الصحابة والتابعين رووا بعض الأحاديث بمعانيها، أو أنهم أجازوا إبدال كلمة بأخرى عند الضرورة، وكان أحدهم إذا اضطر إلى هذا أشار إلى ما يرويه ليس لفظه ﷺ. لذلك نرى بعض الصحابة يتورعون كثيرًا عند ذكر حديث رسول الله ﷺ خشية الخطأ.

وقد روينا أن عبد الله بن مسعود كان إذا قال: «قال رسول الله ﷺ قال: هكذا أو نحوا من هذا، أو قريبًا من هذا، وكان يرتعد»[6].

وكان أبو الدرداء إذا فرغ من حديث عن رسول الله ﷺ قال: هذا أو نحو هذا أو شكله، وقد يقول: «اللهم إلا هكذا، فكشكله»[7].

وقال محمد بن سيرين: «كان أنس بن مالك قليل الحديث عن رسول الله ﷺ، وقال: وكان إذا حدث عنه قال: أو كما قال»[8].

---

(١) انظر: المحدث الفاصل ص ١٢٦: ب والكفاية ص ٢٠٥ والجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٠٠: ب وجامع بيان العلم وفضله ص ٨٠ جـ١.

(٢) انظر: الكفاية ص ٢٠٥.

(٣) المحدث الفاصل ص ١٢٧: ب.

(٤) تقدمة الجرح والتعديل ص ٤٣.

(٥) انظر: الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٠٦: ب وجامع بيان العلم وفضله ص ٨١ جـ١ والكفاية ص ١٨٨.

(٦) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٠٧: أ وجامع بيان العلم وفضله ص ٧٩ جـ١، وانظر: سنن ابن ماجه ص ٨ جـ١.

(٧، ٨) الكفاية ص ٢٠٥ وجامع بيان العلم وفضله ص ٧٩ جـ١ والجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ٢٠٧. وذكر ذلك زهير بن حرب عن أبى الدرداء فى كتاب العلم ص ١٩١: ب

وعن عروة بن الزبير قال: «قالت لى عائشة رضى الله عنها: يا بنى يبلغنى أنك تكتب عنى الحديث ثم تعود فتكتبه، فقلت لها: أسمعه منك على شىء، ثم أعود فأسمعه على غيره، فقالت: هل تسمع فى المعنى خلافًا؟ قلت: لا، قالت: لا بأس بذلك»[1]. وعن أيوب عن محمد بن سيرين قال: ربما سمعت الحديث عن عشرة كلهم يختلف فى اللفظ والمعنى واحد[2].

قال مكحول: دخلت أنا وأبو الأزهر على واثلة بن الأسقع، فقلنا له: يا أبا الأسقع، حدثنا بحديث سمعته من رسول الله ﷺ، ليس فيه وهم ولا تزيد ولا نسيان، قال: هل قرأ أحدٌ منكم من القرآن شيئًا؟ قال: فقلنا نعم، وما نحن له بحافظين جداً، إنا لنزيد الواو والألف وننقص. قال: فهذا القرآن مكتوب بين أظهركم لا تألون حفظًا، وأنتم تزعمون أنكم تزيدون وتنقصون فكيف بأحاديث سمعناها من رسول الله ﷺ، عسى ألا نكون سمعناها منه إلا مرة واحدة، حسبكم إذا حدثناكم بالحديث على المعنى[3].

وروى قتادة عن زرارة بن أبى أوفى قال: لقيت عدة من أصحاب النبى ﷺ، فاختلفوا علىَّ فى اللفظ واجتمعوا فى المعنى[4].

وقال جرير بن حازم: «سمعت الحسن يحدث بالحديث: الأصل واحد والكلام مختلف»[5]، وقال عمران القصير: «قلت له (للحسن البصرى): إنا نسمع الحديث فلا نجىء به على ما سمعناه، قال: لو كنا لا نحدثكم إلا كما سمعنا ما حدثناكم بحديثين، ولكن إذا جاء حلاله وحرامه فلا بأس»[6].

---

(١) الكفاية ص ٢٠٥.

(٢) المحدث الفاصل ص ١٢٦: ب وجامع بيان العلم وفضله ص ٧٩ جـ١ والكفاية ص ٢٠٥.

(٣) الجامع لأخلاق الراوى ص ١٠٦ وتدريب الراوى ص ٣١٢ وموجزاً فى كتاب العلم لزهير بن حرب ص ١٩١: ب.

(٤) المحدث الفاصل ص ١٢٥.

(٥) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٠٦: أ.

(٦) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٠٦: أ.

ورويت إجازة التحديث بالمعنى عن عبد الله بن مسعود وأبى الدرداء وأنس ابن مالك، وعائشة أم المؤمنين، وعمرو بن دينار، وعامر الشعبى وإبراهيم النخعى، وابن أبى نجيح، وعمرو بن مرة، وجعفر بن محمد بن على، وسفيان ابن عيينة، ويحيى بن سعيد القطان[1].

وقد أدرك ابن عون ثلاثة ممن يرخصون فى رواية الحديث على المعنى هم: الحسن البصرى، وإبراهيم النخعى. وعامر الشعبى[2].

ونرى هؤلاء الذين أجازوا رواية الحديث على المعنى عند الضرورة، كانوا يبينون للسامعين أنهم رووا بعض الحديث على المعنى بقولهم بعد التحديث، أو كما قال، ونحو هذا، ومنهم من كان لا يبيح لمن يسمع أن يكتب عنه الحديث حتى لا يظن أن ما رواه لفظ الرسول ﷺ، فكان عمرو بن دينار يحدث على المعنى ويقول: «أحرج على من يكتب عنى»[3].

ولابد أن نقرر أن من أباح رواية الحديث على المعنى أباحها بشروط، ولم يطلق هذا لأى إنسان، وأجاوزا ذلك للضرورة، كأن يند اللفظ عن الذاكرة، أو يغيب لفظ الحديث عن المحدث عند الحاجة إلى روايته فيرويه بالمعنى، والضرورة تقدر بقدرها. قال الإمام الشافعى فى صفات الراوى: «أن يكون من حدث به ثقة فى دينه، معروفًا بالصدق فى حديثه، عاقلاً لما يحدث به، عالمًا بما يحيل معانى الحديث من اللفظ، وأن يكون ممن يؤدى الحديث بحروفه كما سمع لا يحدث به على المعنى، لأنه إذا حدث به على المعنى وهو غير عالم بما يحيل معناه ـ: لم يدر لعله يحيل الحلال إلى الحرام وإذا أداه بحروفه فلم يبق وجه يُخاف فيه إحالَتُه الحديثَ..»[4].

---

(١) انظر: الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٠٦: أ.

(٢) انظر: المحدث الفاصل ص ١٢٦: ب وجامع بيان العلم: ص ٨٠ جـ١ والكفاية ص ٢٠٥.

(٣) تذكرة الحفاظ: ص ١٠٧ جـ١

(٤) الرسالة ص ٣٧٠، ٣٧١ الفقرة ١٠٠١ وانظر: فيما يتعلق بالرواية على المعنى الفقرات: ٧٤٤، ٧٥٧، ١٠١٣ـ ١٠١٥ و١٠٣٦ـ ١٠٤٢ من الرسالة. ونقل الرامهرمزى قول الشافعى فى المحدث الفاصل ص ٧٩: ب و ص ١٢٨: أ، وانظر أيضًا: معرفة السنن والآثار للبيهقى ص ٩ جـ١.

قال الرامهرمزى: «وقد دل قول الشافعى فى صفة المحدث مع رعايته اتباع اللفظ، على أنه يسوغ للمحدث أن يأتى بالمعنى دون اللفظ، إذا كان عالمًا بلغات العرب ووجوه خطابها، بصيرًا بالمعانى والفقه، عالمًا بما يحيل المعنى وما لا يحيله، فإنه إذا كان بهذه الصفة جاز له نقل اللفظ، فإنه يحترز بالفهم عن تغيير المعانى وإزالة أحكامها، ومن لم يكن بهذه الصفة كان أداء اللفظ له لازمًا، والعدول عن هيئة ما يسمعه عليه محظورًا، وإلى هذا رأيت الفقهاء من أهل العلم يذهبون. ومن حجتهم فى جواز ذلك: أن الله عز وجل قد قص من أنباء ما قد سبق قصصًا كرر ذكر بعضها فى مواضع بألفاظ مختلفة، والمعنى واحد، ونقلها من ألسنتهم إلى اللسان العربى، وهو مخالف لها فى التقديم والتأخير والحذف والإلغاء والزيادة والنقصان وغير ذلك»[1].

ولم يكن الصحابة والتابعون بدعا فى رواية بعض الأحاديث بمعناها، بل وجدوا دليل الجواز فى منهج القرآن الكريم ـ كما ذكر الرامهرمزى ـ وفى سنة رسول الله ﷺ، فقد كان يرسل سفراءه ورسله فينقلون رسائله ويترجمونها إلى غير العربية، فإباحة ترجمة الحديث إلى لغة ثانية دليل على إباحة نقله بنفس اللغة على معناه، بلفظ عربى هو أقرب إلى لفظ الرسول ﷺ من ألفاظ اللغة الأجنبية[2]، بل هذا أولى بأن يكون مباحًا.

وللذين كرهوا الرواية على المعنى أدلة منها حديث «**نضر الله امرأ سمع منا حديثنا فأداه كما سمعه**»، وما رواه البراء بن عازب «أن النبى ﷺ قال: **يا براء كيف تقول إذا أخذت مضجعك؟** قال: قلت الله ورسوله أعلم، قال: «**إذا أويت إلى فراشك طاهرًا فتوسد يمينك، ثم قل اللهم أسلمت وجهى إليك وفوضت أمرى إليك وألجأت ظهرى إليك رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذى أنزلت وبنبيك الذى أرسلت**». فقلت كما علمنى غير أنى قلت ورسولك فقال بيده فى صدرى و(بنبيك) فمن قالها من ليلته ثم مات، مات على الفطرة[3].

---

(١) المحدث الفاصل ص ١٢٤: ب.
(٢) انظر: الكفاية ص ٢٠٣.
(٣) الكفاية ص ١٧٥ والمحدث الفاصل ص ١٢٥: أ.

وقد أطال بعض العلماء القول فى أدلة كل من المجيزين للرواية على المعنى والمانعين لها[1]. وأجمع العلماء كلهم على أنه لا يجوز للجاهل بمعنى ما ينقل أن يروى الحديث على المعنى، ومن أجاز هذه الرواية إنما أجازها للعالم بشروط، قال الماوردى: «إن نسى اللفظ جاز، لأنه تحمل اللفظ والمعنى، عجز عن أداء أحدهما، فيلزمه أداء الآخر، لاسيما أن تركه قد يكون كتمًا للأحكام، فإن لم ينسه لم يجز أن يورده بغيره، لأن فى كلامه ﷺ من الفصاحة ما ليس فى غيره»[2]. وقال السيوطى: «ولا شك فى اشتراط ألا يكون مما تعبد بلفظه... وعندى أنه يشترط ألا يكون من جوامع الكلم»[3].

بعد هذا يمكننا أن نحكم أن رواية الحديث بالمعنى كانت للضرورة، وكانت بقدر وخاصة بعد أن عرفنا ورع الصحابة والتابعين، ودقتهم فى رواية الأخبار، وتحفظهم وتثبتهم مما يروون أو يسمعون، وهذا يرجح عندى أن الرواية بالمعنى إن وقعت تاريخياً من بعض الصحابة، فإنما كانت بألفاظ قريبة جداً من ألفاظه ﷺ، لأنهم رأوا رسول الله عليه الصلاة والسلام، وسمعوا منه وتخرجوا بحلقاته، واستضاءت قلوبهم بتوجيهه وعنايته، وكانوا على جانب عظيم من البيان والفصاحة، وهم أعلم بلغة العرب، لم يتسرب إلى كلامهم اللحن، ولم يغير سليقتهم ولسانهم امتزاج الأمم والشعوب.

ويقوى عندى أن معظم ما رواه الصحابة والتابعون كان بلفظ الرسول ﷺ - أن بعضهم كان يكتب الحديث بين يدى النبى الكريم، وكانوا يعقدون الحلقات يتذاكرون فيها ما يسمعونه منه عليه الصلاة والسلام، ويصحح بعضهم أخطاء

---

(١) تكلم الخطيب البغدادى فى الرواية على المعنى واللفظ وذكر الأدلة فى ذلك راجع الكفاية ص ١٩٨- ٢٠٣ وتكلم العراقى حول الرواية بالمعنى انظر: فتح المغيث ص ٤٨ جـ٣ وما بعدها، وكذلك السيوطى فى تدريب الراوى انظر: ص ٣١١ وما بعدها. وكذلك الحافظ ابن كثير انظر: الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ص ١٥٧ وما بعدها، وفصل الشيخ طاهر الجزائرى أقوال العلماء وأدلتهم فى (توجية النظر) ص ٢٩٨- ٣١٤ وهو خير من استوفى هذا البحث من المتأخرين.

(٢) تدريب الراوى ص ٣١٣.

(٣) المرجع السابق ص ٣١٤.

بعض، وإذا شكوا فى أمر أو أشكل عليهم شىء رجعوا إلى النبى الأمين ﷺ، وكان أكثر الرواة من التابعين يكتبون ما يسمعون من الصحابة ويحفظونه، فمنهم من يذاكر الحديث حتى إذا ما وعاه صدره محاه، ومنهم من يحفظه ويحتفظ بصحفه وألواحه، ومنهم من حرص على كتابة الحديث وجمعه فى كراريس أو فى مصنف كالمصحف[1].

وأما من كان لا يكتب من التابعين وأتباعهم فقد حرص على حفظ الحديث فى صدره، وكانوا يذاكرون الأحاديث بين آونة وأخرى، ويرحلون من بلد إلى آخر ليسمعوا من الصحابة رضى الله عنهم، أو ليتأكدوا من صحة ما سمعوه عن رسول الله ﷺ، فيفهموا معناه ويضبطوا حروفه وألفاظه، ويزيد ثقة بأن جل ما روى عن رسول الله ﷺ كان بلفظه عليه الصلاة والسلام، تلك الحوافظ التى وهبها الله عز وجل لحملة الشريعة الإسلامية، ورواة الحديث الشريف من الصحابة والتابعين وأتباعهم، فيروى لنا التاريخ ما كان يحفظه أبو هريرة وغيره، وإن المرء ليعجب عندما يطلع على أخبار صحيحة، تذكر تلك الحوافظ العظيمة التى حملت إلينا السنة كذاكرة عبد الله بن عباس الذى اشتهر بسرعة حفظه، حتى إنه كان يحفظ الحديث من مرة واحدة، ويروى أنه سمع قصيدة لابن أبى ربيعة عدتها ثمانون بيتًا فحفظها من المرة الأولى، وفى الصحابة أمثاله كزيد ابن ثابت الذى حفظ معظم القرآن قبل بلوغه، وتعلم لغة اليهود فى سبعة عشر يومًا، وفيهم عائشة أم المؤمنين التى كانت آية من آيات الذكاء والحفظ وغير هؤلاء.

وفى التابعين نافع مولى عبد الله بن عمر الذى لم يخطئ فيما حفظ، وأجمع النقاد على دقة حفظه، وفيهم ابن شهاب الزهرى حافظ زمانه، وعامر الشعبى ديوان عصره، وقتادة بن دعامة السدوسى مضرب المثل فى سرعة الحفظ والضبط والإتقان.

---

(١) تعرضت لهذا فى الباب الرابع من هذا الكتاب، وفصلت القول فيه.

فإذا طالعنا ما اختلف فيه الرواة من حيث اللفظ، مما تعددت طرقه وجدنا معظمه مما كان أخبارًا عن عمل من أعماله ﷺ، أو تبليغًا لحكم واقعة شاهدوها بأعينهم، فنراهم يقولون: «أمر رسول الله ﷺ بكذا»، و«نهى رسول الله ﷺ عن كذا»، والمعنى فى كل هذا واحد، وهذا طبيعى لا يدخل الريب فى مروياتهم، لاختلافهم فى صيغ الأداء، لأن كل راو عبر عما شاهده بلفظه، ومن النادر أن نرى اختلافًا فيما نقلوه إلينا من جوامع الكلم، أو مما يتعبد بلفظه، كصيغ الأذان والإقامة والدعاء والتشهد وغير ذلك.

وليس جميع ما نقل إلينا مما اختلف لفظه بسبب الرواية بالمعنى، فجله يعود إلى تعدد مجالس الرسول ﷺ وكثرتها، فقد يتناول موضوعًا واحدًا فى مناسبات مختلفة، ويجيب السائلين بما يتناسب مع مداركهم، وقد يستفتيه أكثر من واحد فى واقعة واحدة، فيفتى كل واحد بما يكفيه ويروى غليله، بألفاظ مختلفة، وعبارات متفاوتة، تؤدى الغاية المقصودة، وما روى بالمعنى مع هذا لا يكاد يخفى على أهل هذا العلم، لكثرة دراستهم حديث الرسول ﷺ، وللأمانة العلمية التى كان عليها الرواة، فكانوا مثلاً رائعًا فى الضبط والدقة والإتقان، يتبعون بعض ما يروونه بعبارة تفيد احتياطهم فيما نقلوه، وينبهون فى أثناء سياق الحديث على موضع السهو أو الظن، وكانوا يحرصون دائمًا على نقل اللفظ النبوى كما صدر عنه عليه الصلاة والسلام.

بعد هذا لا نرى داعيًا للتهويل الذى يثيره بعض الكتاب وبعض المغرضين حول رواية بعض الأحاديث بالمعنى، ولا وجه لإثارة خلاف أصبح طى التاريخ، وكان معظم ما ذهب إليه العلماء من إباحة رواية الحديث بالمعنى وعدم روايته خلافًا عقلياً نظرياً، وإن وقع تاريخيا فإنما وقع فى الصدر الأول وبقدر لا ضرر منه، لذلك نرى أنه من العبث إثارة مثل هذا الموضوع ـ الذى انصرم أوانه ـ وتشكيك الأمة فى حديث رسولها الأمين، وليس هناك أى مسوغ لإدخال الريب فى النفوس، بعد أن أجمعت الأمة على قبول الكتب الصحاح، وعلى أنها حديث رسول الله ﷺ، الذى نقل إلينا بأسلم الطرق العلمية، على أيدى خيار علماء الأمة من الصحابة والتابعين ومن تبعهم.

وقد تناول (أبو رية) فى كتابه «أضواء على السنة المحمدية» هذا البحث، إلا أنه أحاط الموضوع بهالة، توهم من لا خبرة له بأن معظم الحديث النبوى قد روى بألفاظ الرواة[1]، وجسم خطر الرواية بالمعنى، بما لا يتفق والواقع التاريخى، وتحدث عن بعض الخلاف العقلى النظرى على أنه مما وقع بالفعل، ورتب على جواز الرواية بالمعنى نتائج، إن صح ترتبها على رواية غير الحديث بالمعنى. لا يمكن أن تنتج عن رواية الحديث فضلاً عن أنها لم تترتب من جراء رواية بعض الأحاديث بمعناها، لما عرفنا من دقة النقاد والرواة، وكثرة طرق الرواية، ومقابلتها ومناقشتها، وكل ما فى الأمر أن بعض الأحاديث رويت بمعناها، ولم ينتج عن ذلك خطر على الدين ولا غاب ذلك عن المسلمين.

ونحن لا نشك أن الرواية بالمعنى قد توقع فى الخطأ، ولكن هذا الخطأ ـ إذا وقع ـ لم يخف على علماء الأمة، فلا وجه لذلك التهويل والإيهام، لأن النقاد والعلماء اعتنوا عناية عظيمة بحفظ الحديث وروايته، وأشاروا إلى كل كبيرة وصغيرة ورووا أكثر الأحاديث من طرق عدة تنفى الشك وتطرح الخبث، فما الداعى ـ بعد هذا ـ لأن يثير (أبو رية) شبهة حول الحديث وروايته؟

على أنه لم يكتف بذكر اختلاف السابقين فى الرواية وذكر أقوالهم، بل حاول أن يثبت أن جميع ما روى مختلفًا لفظه إنما كان نتيجة لرواية الحديث بالمعنى،

---

(١) افتتح أبو رية موضوعه هذا فقال: «يحسب الذين لا خبرة لهم بالعلم، ولا علم عندهم بالخبرة أن أحاديث الرسول التى يقرءونها فى الكتب، أو يسمعونها ممن يتحدثون بها، قد جاءت صحيحة المبنى محكمة التأليف، وأن ألفاظها قد وصلت إلى الرواة مصونة كما نطق النبى بها، بلا تحريف ولا تبديل، وكذلك يحسبون أن الصحابة ومن جاء من بعدهم، ممن حملوا عنهم إلى زمن التدوين، قد نقلوا هذه الأحاديث بنصها كما سمعوها، وأدوها على وجهها كما لقنوها، فلم ينلها تغير ولا اعتراها تبديل: ومما وقر فى أذهان الناس أن هؤلاء الرواة قد كانوا جميعًا صنفًا خاصاً بين بنى آدم فى جودة الحفظ وكمال الضبط وسلامة الذاكرة. . . ولقد كان ولا جرم لهذا الفهم أثر بالغ فى أفكار شيوخ الدين ـ إلا من عصم ربك ـ فاعتقدوا أن هذه الأحاديث فى منزلة آيات الكتاب العزيز، من وجوب التسليم بها، وفرض الإذعان لأحكامها، بحيث يأثم أو يرتد أو يفسق من خالفها، ويستتاب من أنكرها أو شك فيها». انظر: أضواء على السنة المحمدية ٥٤. ولا مجال للرد على ثريته هذه هنا، وستظهر لنا عناية النقاد والرواة وضبطهم فى الفصول التالية من هذا الكتاب.

وساق شواهد على هذا، فذكر اختلاف صيغ التشهد، واستطرد وخرج عن الموضوع، ثم ذكر «حديث الإسلام والإيمان» وحديث «زوجتُكَها بما معك» وغير ذلك، وما من شيء استشهد به إلا وللعلماء قول فيه.

وقد رد على (أبو رية) العلامة المعاصر (عبد الرحمن بن يحيى المعلمى اليمانى) رداً مفصلاً [1] يكفى أن أستشهد بفقرة واحدة منه.

قال العلامة اليمانى: (قال ـ أبو رية ـ «ص ٦٠»: «صيغ التشهد» وذكر اختلافها[2]. أقوى: يتوهم أبو رية ـ أو يوهم ـ أن النبى ﷺ، إنما علمهم تشهداً واحداً، ولكنهم أو بعضهم لم يحفظوه، فأتوا بألفاظ من عندهم مع نسبتها إلى النبى ﷺ، وهذا باطل قطعًا، فإن التشهد يكرر كل يوم بضع عشرة مرة على الأقل فى الفريضة والنافلة، وكان النبى ﷺ يحفظ أحدهم حتى يحفظ، وقد كان النبى ﷺ يقرئ الرجلين السورة الواحدة هذا بحرف وهذا بآخر. فكذلك علمهم مقدمة التشهد بكل ما صح عن النبى ﷺ، وأما ذكر عمر التشهد على المنبر، وسكوت الحاضرين فإنما وجهه المعقول هو تسليمهم أن التشهد الذى ذكره صحيح مجزئ. وقد كان عمر يقرأ فى الصلاة وغيرها القرآن ولا يرد عليه أحد. مع أن كثيراً منهم تلقوا عن النبى بحرف غير الحرف الذى تلقى به عمر، ومثل هذا كثير، ومن الجائز أن يكونوا ـ أوبعضهم ـ لم يعرفوا اللفظ الذى ذكره عمر، ولكنهم قد عرفوا أن النبى ﷺ علم أصحابه بألفاظ مختلفة وعمر عندهم ثقة)[3].

---

(١) فى كتابه الأنوار الكاشفة الذى وضعه رداً على كتاب أبى رية أضواء على السنة. انظر: ص ٨٢ـ ٨٨ وانظر: ظلمات أبى رية لمحمد عبد الرزاق حمزة ص ٦٨ـ ٩٩.

(٢) بعد أن ذكر أبو رية صيغ التشهد عن الصحابة (ص ٦٠ـ ٦٢) قال: «هذه تشهدات ثمانية وردت عن الصحابة وقد اختلفت ألفاظها، ولو أنها كانت من الأحاديث القولية التى رويت بالمعنى لقلنا عسى! ولكنها من الأعمال المتواترة التى كان يؤديها كل صحابى مرات كثيرة كل يوم، وهم يعدون بعشرات الآلاف، ومما يلفت النظر أن كل صاحب تشهد يقول، إن الرسول كان يعلمه التشهد كما يعلمهم القرآن، وأن تشهد عمر قد ألقاه من فوق منبر رسول الله والصحابة جميعًا يسمعون، فلم ينكر عليه أحد منهم ما قال كما ذكر مالك فى الموطأ.» ا هـ، انظر: أضواء السنة ص ٦٣ إنه يريد أن يشككنا حتى فيما نتعبد به وفيما ثبت متواترًا، والرد على أبى رية وعلى دعواه فى طى عبارته، فلو تجرد وانطلق إلى أفق أوسع من أفقه ما استغرب تعدد هذه الصيغ ولا فتح على المسلمين باب الشك والريبة ولا شكك فى الصحابة حفظة الشريعة وحراسها.

(٣) الأنوار الكاشفة ص ٨٣.

وأرى أن نستكمل بحثنا هذا بما ذهب إليه أئمة اللغة العربية، الذين أجازوا الاستشهاد بالحديث النبوى لإثبات قواعد النحو.

قال عبد القادر البغدادى صاحب خزانة الأدب. «وأما الاستدلال بحديث النبى ﷺ فقد جوزه ابن مالك وتبعه الشارح المحقق (الرضى) فى ذلك، وزاد عليه بالاحتجاج بكلام أهل البيت رضى الله عنهم، وقد منعه ابن الضائع وأبو حيان وسندهما أمران:

أحدهما: أن الأحاديث لم تنقل كما سمعت من النبى ﷺ، وإنما رويت بالمعنى.

وثانيهما: أن أئمة النحو المتقدمين من المصريين لم يحتجوا بشىء منها.

ورد الأول ـ على تقدير تسليمه ـ بأن النقل بالمعنى إنما كان فى الصدر الأول قبل تدوينه فى الكتب، وقبل فساد اللغة، وغايته تبديل لفظ بلفظ يصح الاحتجاج به فلا فرق، على أن اليقين غير مشروط بل الظن كاف.

ورد الثانى: بأنه لا يلزم من عدم استدلالهم بالحديث عدم صحة الاستدلال به.

والصواب: جواز الاحتجاج بالحديث للنحوى فى ضبط ألفاظه، ويلحق به ما روى عن الصحابة وأهل البيت، كما صنع الشارح المحقق».

ثم قال نقلاً عن الدمامينى فى الرد على من لا يحتج بالحديث فى اللغة:

«وقد رد هذا المذهب الذى ذهبوا إليه البدر الدمامينى فى (شرح التسهيل) ـ ولله دره قد أجاد فى الرد ـ قال: قد أكثر المصنف من الاستدلال بالأحاديث النبوية، وشنع أبو حيان عليه، وقال: إن ما استند إليه من ذلك لا يتم له، لتطرق احتمال الرواية بالمعنى فلا يوثق بأن ذلك المحتج به لفظة ﷺ، حتى تقوم به الحجة. وقد أجريت ذلك لبعض مشايخنا فصوب رأى ابن مالك فيما فعله بناء على أن اليقين ليس بمطلوب فى هذا الباب، وإنما المطلوب غلبة الظن الذى هو مناط الأحكام الشرعية، وكذا ما يتوقف عليه من نقل مفردات الألفاظ وقوانين الإعراب، فالظن

فى ذلك كله كاف، ولا يخفى أنه يغلب على الظن أن ذلك المنقول المحتج به لم يبدل، لأن الأصل عدم التبديل، ولاسيما أن التشديد فى الضبط والتحرى فى نقل الأحاديث شائع بين النقلة والمحدثين. ومن يقول منهم بجواز النقل بالمعنى، فإنما هو عندى بمعنى التجويز العقلى الذى لا ينافى وقوع نقيضه فلذلك تراهم يتحرون فى الضبط ويتشددون مع قولهم بجواز النقل بالمعنى، فيغلب الظن من هذا كله أنها لم تبدل ويكون احتمال التبديل فيها مرجوحًا فيلغى، ولا يقدح فى صحة الاستدلال بها.

ثم إن الخلاف فى جواز النقل بالمعنى إنما هو فيما لم يدون ولا كتب، وأما ما دون وحصل فى بطون الكتب فلا يجوز تبديل ألفاظه من غير خلاف بينهم، قال ابن الصلاح بعد أن ذكر اختلافهم فى نقل الحديث بالمعنى: «إن هذا الخلاف لا نراه جاريًا ولا أجراه الناس ـ فيما نعلم ـ فيما تضمنته بطون الكتب، فليس لأحد أن يغير لفظ شىء من كتاب مصنف ويثبت فيه لفظًا آخر». ا هـ.

وتدوين الأحاديث والأخبار ـ بل تدوين[1] كثير من المرويات ـ وقع فى الصدر الأول قبل فساد اللغة العربية حين كان كلام أولئك المبدلين ـ على تقدير تبديلهم ـ يسوغ الاحتجاج به، وغايته يومئذ تبديل لفظ بلفظ يصح الاحتجاج به، فلا فرق بين الجميع فى صحة الاستدلال، ثم دون ذلك المبدل ـ على تقدير التبديل ـ ومنع من تغييره ونقله بالمعنى، كما قال ابن الصلاح فبقى حجة فى بابه، ولا يضر توهم السابق فى شىء من استدلالهم المتأخر، والله أعلم بالصواب»[2].

***

(١) فى الأصل (بل كثير) فحذفنا الواو لأنه لا يجتمع حرفا عطف معًا وأضفنا كلمة (تدوين) تحريرًا للعبارة.
(٢) خزانة الأدب: ص ٤- ٧ جـ١.

الفصل الثانى
وفيه
النشاط العلمى فى عصر الصحابة والتابعين

شعر الصحابة بالتبعة الملقاة على عاتقهم لحفظ الشريعة وتطبيقها، فسارعوا إلى صيانة مصادرها الأولى خشية ضياع القرآن الكريم من صدور القراء (الحفاظ)، إثر حروب الردة، ومن ثم جمعوه فى مصحف على عهد الصديق، وخافوا عاقبة الاختلاف فى القراءات فى الأمصار المختلفة، فنسخوه فى مصاحف وزعت على الأقاليم الإسلامية فى عهد عثمان رضى الله عنه وكانوا فى أحكامهم يرجعون إلى الكتاب الكريم ثم إلى السنة، يسألون عن حكم مأثور عن الرسول فيما يجد لهم من قضايا، فإذا ما ثبت عندهم شىء عن رسول الله ﷺ تمسكوا به وطبقوه، وقد ذكرت طريقة اجتهادهم فيما سبق.

وقد وجد الصحابة الضرورة تلح لحفظ السنة، فحاول الصديق ثم الفاروق حفظها كتابة ـ وما منعهم من ذلك إلا حرصهم على القرآن والسنة كما سيتبين لنا هذا فى بحث تدوين السنة ـ فما كان منهم إلا أن أكبوا على دراستها والسؤال عنها، والبحث عن الحديث عند حفاظه، ويكفينا مثالا لهذا ما كان يفعله ابن عباس بعد وفاة رسول الله ﷺ، فقد روى عكرمه عن ابن عباس أنه قال: «لما قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلم فلنسأل أصحاب رسول الله، فإنهم اليوم كثير، قال: واعجبا لك يابن عباس! أترى الناس يفتقرون إليك، وفى الناس من أصحاب رسول الله من فيهم؟ قال: فترك ذاك، وأقبلت أنا أسأل أصحاب رسول الله عن الحديث، فإنه كان يبلغنى الحديث عن الرجل، فآتى بابه وهو قائل[1]، فأتوسد ردائى على بابه، تسفى الريح علىَّ من التراب، فيخرج فيقول: يا ابن عم رسول الله ما جاء بك؟ ألا أرسلت إلى فآتيك؟ فأقول: أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث[2].»

---

(١) أى وهو فى يوم الظهيرة من القيلولة والقائلة.

(٢) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص٢٤: أ وانظر: ص٢٤: ب منه وتذكرة الحفاظ ص٣٨ جـ١.

وكانت رغبة الصحابة فى سماع حديث رسول الله ﷺ عظيمة، وهل أحب إلى المرء من أن يسمع حكم مربيه وأحكامه وتشريعاته؟ وهل من شىء أعز على المسلم من أن يحيى آثار منقذه من الضلال ورائده إلى الخير؟ لقد كان الصحابة مندفعين بإخلاص إلى سماع حوادث رسول الله ﷺ وسيرته وحديثه، فهذا أبو بكر الصديق يقف عند عازب والد البراء فيشترى منه رحلا وهو للناقة كالسرج للفرس، ثم يقول له: «مر البراء فليحمله إلى منزلى، فيقول: لا، حتى تحدثنا كيف صنعت حين خرج رسول الله ﷺ وأنت معه. فقص عليه خبر الهجرة[1]».

وهذا على أمير المؤمنين يلتقى بكعب الأحبار فيقول له كعب: يا على أسمعت رسول الله ﷺ يقول فى المنجيات؟ قال: لا. ولكن سمعته يقول فى الموبقات، فقال كعب لعلى: حدثى بالموبقات حتى أحدثك بالمنجيات فقال على: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الموبقات: ترك السنة، ونكث البيعة، وفراق الجماعة. فقال كعب لعلى: المنجيات: كف لسانك، وجلوس فى بيتك، وبكاؤك على خطيئتك»**[2].

وقد روى بعض الصحابة عن بعض كثيراً سواء فى حياته عليه الصلاة والسلام أو بعد وفاته، ومن ذلك رواية الفاروق عمر عن الصديق رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ حديث **«لا نورث ما تركناه صدقة»** وهو حديث صحيح أخرجه مسلم، ومنها رواية عثمان رضى الله عنه عن عمر رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنى لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقّاً إلا حرم على النار: لا إله إلا الله»** أخرجه مسلم فى صحيحه، ورواية أبى بكر عن بلال رضى الله عنهما قال: قال النبى ﷺ: **«يا بلال أصبحوا بالصبح، فإنه خير لكم»** ورواية عبد الرحمن بن عوف عن الفاروق رضى الله عنهما قال: رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده: وما رواه بجالة بن عبدة. قال: كنت كاتبًا لجرير بن معاوية على مناذر[3]، فجاءنا كتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه: انظر مجوس هجر من

---

(١) مسند الإمام أحمد ١٥٤-١٥٦ جـ١ وانظر: فتح البارى ص٤٣٥ جـ٧.

(٢) المحدث الفاصل ص١٤٩: أ.

(٣) مناذر هما بلدتان بنواحى خوزستان، مناذر الكبرى ومناذر الصغرى، وهما من كور الأهواز، وقد فتحتا سنة (١٨) هـ. انظر: معجم البلدان ص ١٦٠ جـ٨.

قبلك، فخذ منهم الجزية، فإن عبد الرحمن بن عوف أخبرنى أن النبى ﷺ أخذ الجزية من مجوس أهل هجر، وروت عائشة عن الصديق، كما روى عنها، وروى ابن عمر عن ابن عباس، وابن عباس عن ابن عمر، كما ورت عائشة عنه، وروى ابن عباس عنها وروى جابر بن عبد الله عن أبى سعيد الخدرى، كما روى أبو سعيد عن جابر، وأنس عن جابر، وجابر عن أنس، وروى ابن عباس عن جابر ابن عبد الله كما روى جابر عنه، وروى أبو سعيد الخدرى عن ابن عباس كما روى ابن عباس عنه [١]، ومن يراجع كتب السنن وتراجم الرواة يجد كثيرًا من روايات بعض الصحابة عن بعض، وهذا دليل واضح على النشاط العلمى الذى كان بينهم، يتبادلون الأحاديث ويسمعون ويسمع منهم ويروون ويروى عنهم. كل هذا فى سبيل معرفة الحق وحفظ السنة المطهرة.

ولم يكتف الصحابة بدراسة الحديث فيما بينهم، بل حثوا على طلبه وحفظه وحضوا التابعين على مجالسة أهل العلم والأخذ عنهم، ولم يتركوا وسيلة لذلك إلا أفادوا منها. من هذا ما روى عن عمر رضى الله عنه قال: «تفقهوا قبل أن تسودوا[٢]» وقال أيضًا «تعلموا الفرائض والسنة كما تتعلمون القرآن[٣]» وكان أبو ذر مثلا رائعًا لنشر الحق وتبليغ سنة رسول الله ﷺ، يروى عنه أنه قال: «لو وضعتم الصمصامة ـ السيف الصارم ـ على هذه، وأشار إلى قفاه، ثم ظننت أنى أنفذ كلمة سمعتها من النبى ﷺ قبل أن تجيزوا علىَّ لأنفذتها[٤]». وما كان أبو ذر بدعا فى الصحابة، إنما كان أحد الألوف الذين ساهموا فى حفظ السنة.

عن أبى قلابة قال: «قال ابن مسعود: عليكم بالعلم قبل أن يقبض، وقبضه ذهاب أهله. . .[٥]» وكان ينهى عن البدع ويأمر باتباع السنة فيقول: «الاقتصاد فى

(١) انظر: اللطائف فى دقائق المعارف من علوم الحفاظ الأعارف مخطوطة الظاهرية ص١: أ- ٣: ب.
(٢) فتح البارى ص١٧٥ جـ١.
(٣) جامع بيان العلم وفضله ص٣٤ جـ٢.
(٤) فتح البارى ص ١٧٠ جـ١.
(٥) تذكرة الحفاظ ص١٥ جـ١ ومجمع الزوائد ص١٢٥ جـ١ وانظر: حضه على مذاكرة الحديث فى معرفة علوم الحديث ١٤١.

السنة أفضل من الاجتهاد فى البدعة[1]». وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب: «تزاوروا وتذاكروا الحديث، فإنكم إلا تفعلوا يدرس[2]».

ووقف عمرو بن العاص على حلقة من قريش فقال: «ما لكم قد طرحتم هذه الأغيلمة؟ لا تفعلوا، وأوسعوا لهم فى المجلس، وأسمعوهم الحديث، وأفهموهم إياه، فإنهم صغار قوم أوشك أن يكونوا كبار قوم، وقد كنتم صغار قوم فأنتم اليوم كبار قوم[3]».

وكان ابن عباس يحض طلابه على مذاكرة الحديث، فيقول: تذاكروا هذا الحديث لا ينفلت منكم، فإنه ليس بمنزلة القرآن، القرآن مجموع محفوظ، وإنكم إن لم تذاكروا هذا الحديث تفلت منكم، ولا يقل أحدكم حدثت أمس لا أحدث اليوم، بل حدث أمس، وحدث اليوم، وحدث غدًا. . ، كما كان يقول: إذا سمعتم منا شيئا فتذاكروه بينكم[4]».

وكان أبو سعيد الخدرى يحب طلاب العلم ويفسح لهم المجالس، وكثيرًا ما كان يقول: تحدثوا، فإن الحديث يذكر بعضه بعضًا[5].

ومما يروى عن أبى أمامة الباهلى أنه قال لطلابه: «إن هذا المجلس من بلاغ الله إياكم، وإن رسول الله ﷺ قد بلغ ما أرسل به، وأنتم فبلغوا عنا أحسن ما تسمعون. وفى رواية كان يحدثهم حديثًا كثيرًا عن رسول الله ﷺ، فإذا سكت قال: اعقلوا، بلغوا عنا كما بلغناكم[6]».

وهكذا كان الصحابة الكرام يتواصون بحفظ الحديث ومذاكرته ويحضون طلابهم على ذلك، ويحثونهم على تبليغ ما يسمعون منهم.

---

(١) تذكرة الحفاظ ص١٥ جـ١ ومجمع الزوائد ص١٢٥ جـ١ وانظر: حضه على مذاكرة الحديث فى معرفة علوم الحديث ١٤١.

(٢) شرف أصحاب الحديث ص٩٩. وانظر أيضا: معرفة علوم الحديث ص٦٠، ١٤١.

(٣) شرف أصحاب الحديث ص٨٩: ب.

(٤) شرف أصحاب الحديث ص٩٩: أ وانظر: نحوه فى الجامع لأخلاق الرواى وآداب السامع نسخة الظاهرية ص٤٨: ب.

(٥) شرف أصحاب الحديث ص١٠٥: أ.

(٦) شرف أصحاب الحديث ص١٠٠: أ.

وقد سار التابعون وأتباعهم على نهج الصحابة، فكانوا يوصون أولادهم وتلاميذهم بحفظ السنة وحضور مجالس العلم، فقد أوصى عروة بنيه بهذا كما أوصى طلابه[١]، وكان علقمة يشجع طلابه على مذاكرة الحديث ودراسته[٢] كما كان عبد الرحمن بن أبى ليلى يقول: إحياء الحديث مذاكرته فتذاكروه[٣]. واشتهرت بين العلماء عبارة «تذاكروا الحديث فإن الحديث يهيج الحديث[٤]».

وأكثر من هذا، كان بعض الآباء يشجعون أبناءهم على حفظ الحديث، ويقدمون إليهم جوائز كلما حفظوا شيئا منه، من هذا ما رواه النضر بن الحرث قال: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: قال لى أبى: يا بنى، اطلب الحديث، فكلما سمعت حديثا وحفظته فلك درهم. فطلبت الحديث على هذا[٥].

ومهما يكن موقف المربين فى هذا العصر من هذا التشجيع فإنه وسيلة مبدئية لحفظ الحديث ودراسته، إن كانت فى نظر الطفل هى الغاية فإنها لا تلبث أن تصبح وسيلة، فإذا ما ألف حفظ الحديث، وتعطشت نفسه إليه تجسمت الغاية الأصلية أمامه، وعرف قيمتها، وقدر نفع الحديث، وعرف معناه، وأصبح من عشاقه، سواء انقطعت تلك الجوائز أم لم تنقطع.

وإن التاريخ ليحفظ لنا أخبارًا كثيرة تثبت إقبال طلاب العلم على طلب الحديث إقبالا لا مثيل له، بدافع ذاتى، وميل نفسى، حتى إن بعض طلاب العلم المتفانين فى حب الحديث كانوا يؤدون بعض الخدمات من أجل سماع حديث أو حديثين[٦].

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد ص١٣٤، ١٣٥ قسم ٢ جـ٢ وانظر: المحدث الفاصل نسخة دمشق ص١٥: ب، جـ١.

(٢، ٣، ٤) انظر: شرف أصحاب الحديث ص١٠٠: ب، وانظر: كتاب العلم لزهير بن حرب فإن فيه بعض هذا ص١٨٩: ب وكذلك فى الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص٤٤٦ ب والمحدث الفاصل ص١٢٩: ب - ١٣٠: ب.

(٥) شرف أصحاب الحديث ص٩٠، وإبراهيم بن أدهم عاصر الثورى ويغلب أن وفاته سنة (١٩١) كان ورعا مجاهدا، انظر: البداية والنهاية ص١٣٥ جـ٢.

(٦) روى سفيان بن عيينة قال: كان أبى صيرفيا بالكوفة فركبه الدين فحملنا إلى مكة فلما رحنا إلى المسجد لصلاة الظهر، وصرت إلى باب المسجد إذا شيخ على حمار فقال لى يا غلام أمسك على هذا الحمار حتى أدخل المسجد فأركع، فقلت: ما أنا بفاعل أو تحدثنى، قال: وما تصنع أنت بالحديث؟ واستصغرنى، فقلت: حدثنى. فقال: حدثنى جابر بن عبد الله وحدثنا ابن عباس فحدثنى بثمانية أحاديث فأمسكت حماره، وجعلت أتحفظ ما حدثنى به فلما صلى وخرج قال: ما نفعك ما حدثتك به، حبستنى؟ فقلت حدثتنى بكذا وحدثتنى بكذا، فرددت عليه جميع ما حدثنى به فقال: بارك الله فيك تعال غدا إلى المجلس، فإذا هو عمرو بن دينار (٤٨-١٢٦هـ) انظر: المحدث الفاصل مخطوطة دمشق ص١٦: ب-١٧: أ جـ١.

وقد كانت المنافسة العلمية المحببة قائمة بين طلاب الحديث فى ذلك العصر، فالذكى من تمكن من حفظ أحاديث فى باب كذا وباب كذا، والمجد من أسرع إلى صحابى وأخذ عنه قبل وفاته، والمفلح من حظى بحب شيخه، وتمكن من الانفراد به، والكتابة عنه، والقراءة عليه ثم العرض والتصحيح بين يديه...

لكل هذا رأينا أصحاب الحديث يجدون فى طلب العلم الشريف، ويتبارون فى تحصيله[١]، وكثر طلاب العلم كثرة تثلج لها الصدور، وتشرق بها النفوس حتى إن أحد الصحابة كان يحدث الناس، فيكثرون عليه، فيصعد فوق بيت ويحدثهم[٢] قال أنس بن سيرين: قدمت الكوفة قبل الجماجم، فرأيت بها أربعة آلاف يطلبون الحديث[٣]، وفى رواية زاد: فقال: وأربعمائة قد فقهوا[٤]. فقبل بداية الربع الأخير من القرن الأول أضحت الكوفة محط أنظار أهل الحديث، ولم يقتصر هذا النشاط على قطر دون آخر، بل كان عامًا شاملا. فحلقات العلم كانت تعقد فى كل مكان، ففى جامع دمشق حلقات أبى الدرداء التى تضم نيفا وخمسمائة وألف طالب[٥]، إلى جانب حلقات غيره من شيوخ دمشق، التى كان يكتب فيها الطلاب[٦]، كما كانت تعقد فى حمص وحلب والفسطاط والبصرة والكوفة واليمن إلى جانب حلقات ينبوع الإسلام فى مكة والمدينة، فقد كانت فى المدينة كالروضة يختار منها طالب العلم ما يشاء[٧].

وفى عهد عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى، كان المسجد الحرام يغص بطلاب العلم، حتى إن الخليفة أعجب بهم عندما زاره فوجد فيه حلقًا لا تحصى،

---

(١) انظر: المحدث الفاصل ص١٤٣: ب فيها أخبار عن ذلك.

(٢) انظر: كتاب العلم لزهير بن حرب ص ١٩٢.

(٣) المحدث الفاصل ٨١: أ وكانت دير الجماجم وقعة مشهورة بين الحجاج وعبد الرحمن بن الأشعث سنة (٨٢هـ) وفيها قتل عبد الرحمن بن الأشعث وكثير من القراء. انظر: تاريخ الطبرى ص١٥٧ جـ٥. ودير الجماجم بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها على طرف البر للسالك إلى البصرة: معجم البلدان ص١٣١ جـ٤.

(٤) المحدث الفاصل ص١٣٥، ب.

(٥، ٦) انظر: التاريخ الكبير لابن عساكر ص٦٩ جـ١.

(٧) انظر: المحدث الفاصل ص٩: ب.

تضم أبناء المسلمين وطلاب العلم، فسأل عن شيوخ هذه الحلقات، فكان فيها عطاء، وسعيد بن جبير، وميمون بن مهران، ومكحول، ومجاهد، وغيرهم، فحث أبناء قريش على طلب العلم والمحافظة عليه[1].

وسيتجلى لنا نشاط المراكز العلمية فى الدولة الإسلامية عندما نتكلم عن انتشار العلم فى عهد الصحابة والتابعين.

وقد قيض الله لهذه الأمة أساتذة أوتوا العلم والأدب وأصول التربية، ترعرعوا بين يدى رسول الله ﷺ ويدى أصحابه الكرام، واجتهد القائمون على التعليم منهم فى ذلك العصر فى تعليم تلاميذهم وجلسائهم، واعتنوا عناية عظيمة بالنشء الجديد، فنرى إسماعيل بن رجاء ـ من أقران الأعمش ـ يجمع الصبيان ويحدثهم[2]. ومر رجل بالأعمش ـ سليمان بن مهران ـ وهو يحدث فقال له: تحدث هؤلاء الصبيان؟ فقال الأعمش: هؤلاء الصبيان يحفظون عليك دينك[3]. وكان مطرف بن عبد الله يقول: لأنتم أحب إلى مجالسة من أهلى[4]. وكان سفيان الثورى يقول: لو لم يأتونى ـ(يعنى طلاب الحديث) لأتيتهم فى بيوتهم[5]. وكانوا يعلمونهم الحديث والأدب فيه، واحترامه وإجلاله[6]، وكانت لحلقات العلم مكانة جليلة، وكان طلاب الحديث يوقرون أساتذتهم، ويفخرون بخدمتهم، والأخذ عنهم، وكان سلوكهم مع أساتذتهم فى غاية الأدب والاحترام، سواء أكان هذا فى التلقى عنهم أم فى مناقشتهم، ويؤثر عن كثير من الصحابة والتابعين نصائح لطلاب العلم فى هذا الصدد[7].

---

(١) انظر: المحدث الفاضل ص٣٥: ب-٣٦.

(٢) انظر: كتاب العلم لزهير بن حرب ص١٩٠.

(٣) شرف أصحاب الحديث ص٨٩: أ وانظر: المحدث الفاصل نسخة دمشق ص١٥ جـ١.

(٤) شرف أصحاب الحديث ص١٠٢: ب.

(٥) شرف أصحاب الحديث ص١٠٣: ب واشتهر عن عروة بن الزبير أنه كان يتألف الناس على حديثه، انظر: كتاب العلم لابن حرب ص١٨٧.

(٦) انظر: طبقات ابن سعد ص٣٤٥ جـ٥.

(٧) انظر: العقد الفريد ص٧٨ جـ٢.

وأما حلقات العلم وشيوخها وطريقة تعليمهم فإنها تحتاج إلى بحث كبير قائم بذاته، وإن لدينا من الأخبار ما يملأ أكثر من مجلد فى هذا. ولكن المقام يضيق بإيرادها، ويكفينا أن نذكر شيئا موجزا عن الصحابة والتابعين يتناول طريقة تعليمهم.

وأول ما يسترعى انتباهنا فى هذا خطوط كبرى تعتبر من الأسس الهامة فى التربية الحديثة، من هذه الأسس:

١ ـ مراعاة أحوال المحدثين:

فقد لاحظ الصحابة والتابعون أحوال طلابهم ملاحظة دقيقة، فكانوا لا يحدثونهم إلا بما يناسب مداركهم، ويشرحون الأحاديث، ويبينون مناسباتها حتى يدرك الطلاب ما يرويه شيوخهم، يروى عن ابن مسعود أنه قال: «إن الرجل ليحدث بالحديث فيسمعه من لا يبلغ عقله فهم ذلك الحديث، فيكون عليه فتنة[١]» وفى رواية عنه «ما أنت محدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم[٢]» وعن حماد بن زيد قال: قال أيوب: لا تحدثوا الناس بما لا يعلمون فتضروهم[٣].

٢ ـ الحديث لمن هو أهل له:

وكما حرص الصحابة والتابعون على مراعاة أحوال الرواة، حرصوا على نشر الحديث بين أهله وطلابه، ورفعه عن السفهاء وأهل الغايات والأهواء، فكانوا يحاولون جهدهم ألا يحضر مجالسهم إلا طلاب العلم، وفى هذا كان يقول الزهرى: «... وهجنته (أى الحديث) نشره عند غير أهله[٤]»، وكان الأعمش

---

(١) الجامع لأخلاق الرواى وآداب السامع ص١٢٩: ب.

(٢) تذكرة الحفاظ ص١٥ جـ١ وروى نحو هذا عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، انظر: المحدث الفاصل ص١٤٣: ب.

(٣) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص١٢٩: ب.

(٤) المحدث الفاصل ص١٤١: أ والهجنة والتهجين الأمر تقبيحه.

يرى أن إضاعة الحديث التحديث به عند غير أهله[1]» وكثيرا ما كان يقول: «لا تنثروا اللؤلؤ على أظلاف الخنازير يعنى الحديث[2]» أى لا تحدثوا الحديث لغير أهله.

ورأى الأعمش شعبة بن الحجاج يحدث قوما، فقال له: ويحك يا شعبة! تعلق الدر فى أعناق الخنازير[3]؟ قال مجالد بن سعيد: حدثنى الشعبى بحديث.. فرويته عنه، فأتاه قوم فسألوه عنه، فقال: ما حدثت بهذا الحديث قط، فأتونى، فأتيته، فقلت: أو ما حدثتنى؟ قال أحدثك بحديث الحكماء، وتحدث به السفهاء[4]!؟ وكان يقول: إنما كان يطلب هذا العلم من جمع النسك والعقل، فإن كان عاقلا بلا نسك قيل: هذا لا يناله، وإن كان ناسكا بلا عقل قيل: هذا أمر لا يناله إلا العقلاء[5].

وأختم هذه الفقرة بذكر شىء من أساليب الحيطة، التى كان يفعلها زائدة ابن قدامة[6] مع من يأتيه طالبًا الحديث، حرصًا منه على صيانة السنة المطهرة وحفظها. روى عمرو بن المهلب الأزدى قال: «كان زائدة لا يحدث أحدًا حتى يمتحنه، فإن كان غريبا قال له: من أين أنت؟ وإن كان من أهل البلد قال: أين مصلاك؟ ويسأل كما يسأل القاضى عن البينة. فإذا قال له سأل عنه، فإن كان صاحب بدعة قال: لا تعودن إلى هذا المجلس، فإن بلغه عنه خير أدناه وحدثه؛ فقيل له: يا أبا الصلت لم تفعل هذا؟ قال: أكره أن يكون العلم عندهم، فيصيروا أئمة يحتاج إليهم، فيبدلوا كيف شاءوا[7]».

قد يُظَنُّ أن فى تشدد زائدة منعًا للعلم ونشره، وأن طريقته هذه تتنافى مع رسالة المعلمين المرشدين الهادين، والحقيقة أن منهجه هذا كان من وسائل المحافظة

(١، ٢) المحدث الفاصل ص١٤١: أ.

(٣) المحدث الفاصل ص١٤٢: أ.

(٤) المحدث الفاصل ص١٤١: ب، ولعل الشعبى أنكر ذلك لأنه خشى من القوم السفهاء أن يتخذوا ما حدث به ذريعة إلى أهوائهم.

(٥) تذكرة الحفاظ ص٧٧ جـ١.

(٦) انظر ترجمته: فى تذكرة الحفاظ ص١٩٤ جـ١ وهو إمام حجة توفى سنة ١٦١هـ.

(٧) المحدث الفاصل ص١٤٢: ب.

على السنة، كما كان حائلا دون أهل البدع والأهواء من أن يستغلوا الحديث الشريف، أو يحرفوه تبعًا لأهوائهم.

٣ـ طلب الحديث بعد القرآن الكريم:

من البدهى أن يهتم المسلمون بكتاب الله تعالى وحفظه ودراسته وتلاوته، وفهمه وتفسيره. وقد أجمع المحدثون على أنه لا ينبغى أن يطلب المرء الحديث إلا بعد قراءته القرآن وحفظه كله أو أكثره، ثم يبدأ سماع الحديث وكتابته عن الشيوخ، وكان كثير من المحدثين لا يقبلون الطلاب فى حلقاتهم إلا إذا وثقوا من دراستهم القرآن الكريم وحفظ بعضه على الأقل، وفى هذا قال حفص بن غياث: أتيت الأعمش فقلت: حدثنى، قال: أتحفظ القرآن؟ قلت: لا. قال: اذهب فاحفظ القرآن، ثم هلم أحدثك. قال. فذهبت فحفظت القرآن، ثم جئته، فاستقرأنى، فقرأته فحدثنى[١].

٤ـ عدم تتبع المنكر من الحديث:

خشى الصحابة والتابعون من بث بعض الأحاديث الواهية والضعيفة، فنهوا عن روايتها وطلبوا التثبت فى الرواية كما سبق أن ذكرنا، وحثوا على رواية الأحاديث المعروفة ونشرها بين طلاب العلم وخاصة الجدد منهم. وفى هذا يروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب: «حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون!! أتحبون أن يكذب الله ورسوله»[٢]. قال الإمام الذهبى: «فقد زجر الإمام على رضى الله عنه عن رواية المنكر، وحث على التحديث بالمشهور، وهذا أصل كبير فى الكف عن بث الأشياء الواهية، والمنكرة من الأحاديث فى الفضائل والعقائد، والرقائق، ولا سبيل إلى معرفة هذا من هذا إلا بالإمعان فى معرفة الرجال[٣]».

وأما الأحاديث المنكرة والشاذة وطرقها، والأحاديث الموضوعة ـ فقد كان يحفظها الشيوخ حتى إذا ذكر لهم حديث منها بينوه، وكانوا يروون منها لطلابهم

(١) المحدث الفاصل نسخة دمشق ص١٩ جـ١.

(٢) تذكرة الحفاظ ص١٢، ١٣ جـ١ وفتح البارى ص٢٣٥ جـ١.

(٣) تذكرة الحفاظ ص١٢، ١٣ جـ١.

بعد بيان عللها، وبعد أن يقطع الطلاب مرحلة جيدة فى دراساتهم. وسنبين هذا عندما نتكلم عن الحديث الموضوع.

٥ـ التنويع والتغيير دفعا للملل:

عرف الصحابة والتابعون ما يجدد نشاط طلابهم، فعملوا به، وأفادوا منه لتتحق الغاية من دروسهم وحلقاتهم، فكانوا يتناولون دراسة الأحاديث المختلفة حينا، ويتكلمون فى الرجال أحيانا، وينتقلون إلى سيرة الرسول ﷺ تارة، ويذكرون أسباب ورود الحديث ومناسبته تارة أخرى.

فكانت دراسة الحديث شيقة، تجذب الطالب إليها لتعدد موضوعاتها وتناولها كثيراً من الأمور التى تتعلق بدينه ودنياه. ومع هذا كان شيوخ الحلقات يخشون إدخال السآمة إلى نفوس تلاميذهم، فكانوا يتخولونهم بالموعظة كما كان يفعل رسول الله ﷺ، وكما فعل الصحابة من بعده[١] وكانت السيدة عائشة توصى التابعين بهذا، فقد قالت لعبيد بن عمير. إياك وإملال الناس وتقنيطهم[٢]. ولهذا كانوا لا يطيلون المجلس حتى لا تضيع الفائدة عليهم، وفى هذا يقول الإمام الزهرى: «إذا طال المجلس كان للشيطان فيه نصيب[٣]» (ويروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان يقول ـ إذا فاض من عنده بالحديث بعد القرآن والتفسير ـ: أحمضوا. أى خوضوا فى الشعر وغيره..، وعن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه قال: إنى لأستجم قلبى بالشىء من اللهو، لأقوى به على الحق[٤].).

وقد كان الصحابة أحيانا يتناولون فى مجالسهم بعض الشعر وأيام الجاهلية ليسروا عن أنفسهم، فيبدلوا الموضع ليستعيدوا نشاطهم، فعن أبى خالد الوالى قال: «كنا نجالس أصحاب النبى ﷺ، فيتناشدون الأشعار ويتذاكرون أيامهم فى

---

(١) انظر هذا: عن عبد الله بن مسعود فى مسند الإمام أحمد ص ٢٠٢ حديث ٣٥٨١ جـ٥ وجامع بيان العلم ص١٠٥ جـ١.

(٢، ٣) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص١٣٦: أ.

(٤) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص٤١ واللهو المقصود هنا اللهو المشروع مما يروح القلب ويجدد النشاط.

الجاهلية[1]»، وكان الزهرى يحدث ثم يقول: «هاتوا من أشعاركم، هاتوا من أحاديثكم، فإن الأذن محاجة، وإن للنفس حمضة[2]».

وكان يقول: روحوا القلوب ساعة وساعة[3].

٦ ـ احترام حديث رسول الله ﷺ وتوقيره:

ذكرت تمسك الصحابة والتابعين بالسنة، وتقديمها على كل شيء بعد القرآن، فقد كانوا لا يقبلون رأيا مع السنة مهما يكن شأنه، ومهما تكن منزلة صاحبه، وكما تمسكوا بالسنة احترموا مجالس الحديث، ووقروا حفاظه، وتأدب الناس مع حديث رسول الله ﷺ شيوخا وطلابا.

عن الأعمش عن ضرار بن مرة قال: كانوا يكرهون أن يحدثوا عن رسول الله ﷺ وهم على غير وضوء[4] وكان الأعمش إذا أراد أن يحدث وهو على غير وضوء تيمم[5]. وقال قتادة: لقد كان يستحب أن لا تقرأ الأحاديث التى عن رسول الله ﷺ إلا على طهور، وفى رواية إلا على وضوء[6]، وروى هذا عن كثير من العلماء.

ويذكر سعيد بن المسيب ـ وهو على فراش المرض ـ حديثا عن رسول الله ﷺ، فيقول: أجلسونى، فإنى أكره أن أحدث حديث رسول الله ﷺ وأنا مضطجع[7].

قال الرامهرمزى: كان أكثرهم يتطهرون عندما يتصدرون للتحديث فيلبس العالم أحسن ثيابه، ويتوضأ وضوءه للصلاة، ومن ذلك قول أبى العالية: «إذا حدثت عن رسول الله ﷺ حديثا فازدهر». وكان مالك رضى الله عنه إذا أراد أن يخرج

---

(١) جامع بيان العلم ص١٠٥ جـ١.

(٢) جامع بيان العلم ص١٠٤ جـ١. مج الشراب من فيه رمى به، ومج الحديث طرحه ومل والحمضة الشهوة للشيء، وحمضت الإبل عن الحمض كرهته وبه اشتهته. انظر القاموس المحيط.

(٣) جامع بيان العلم ص١٠٥ جـ١.

(٤) جامع بيان العلم وفضله ص١٩٨ جـ٢ والمحدث الفاصل ص١٤٧: أ.

(٥) جامع بيان العلم وفضله ص١٩٩ جـ٢.

(٦، ٧) جامع بيان العلم وفضله ص١٩٩ جـ٢.

يحدث توضأ وضوءه للصلاة، ولبس أحسن ثيابه، ولبس قلنسوة، ومشط لحيته، فقيل له في ذلك، فقال: «أوقر حديث رسول الله ﷺ[1]». وكان مالك أحيانا يحدث أبناء كل قطر حتى لا يزداد الازدحام في داره، فكان مناد على بابه ينادى: ليدخل أهل الحجاز، فلا يدخل غيرهم، ثم يخرج فينادى أهل الشام[2]... يفعل هذا حتى لا يكثر الطلاب ، فيكثر السؤال، وتفوت الفائدة جل الحاضرين.

وهناك آداب كثيرة، وأصول متبعة للسؤال والقراءة والعرض على المحدث، والجلوس بين يديه، وحضور حلقات العلم، تكفلت بذكرها كتب خاصة[3]، وأفردت لها أبواب في أكثر كتب مصطلح الحديث وعلومه.

٧ـ مذاكرة الحديث:

لم يكن طلاب العلم يكتفون بحضور مجلس الحديث ثم ينصرفون إلى أعمالهم حتى يحين المجلس القادم، من غير أن يذاكروا ما يسمعونه. ولم يكن حضور حلقات العلم للتسلية وشغل أوقات الفراغ..، متى شاء الطالب حضر ومتى أحب انصرف منها، كلا، بل كان الطلاب يحضرون في أوقات معينة يخصصها لهم أستاذهم بعد صلاة الفجر مثلا حتى الضحى، أو بين الظهر والعصر، فيتسابق الطلاب إلى الحلقة قبل انعقادها، ليتخذوا أماكنهم[4]، حتى إذا ما حضر الأستاذ كان جميع الطلاب على استعداد لتلقى الحديث عنه. وقد يغيب عن الحلقة طالب، فيسأل عنه الشيخ ويعرف سبب غيابه، وقد يكلف بعض إخوانه السؤال عنه، فالحلقات في العصور الماضية كانت كالفصول النظامية في مدارسنا الحديثة:

---

(١) انظر: المحدث الفاصل ص١٤٦: ب.

(٢) انظر: المرجع السابق ص١٤٧: أ.

(٣) فقد ألف الخطيب كتابا كبيرا في هذا سماه (الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع) تعرض فيه لجميع ما يتعلق بطلاب الحديث وأساتذتهم ودروسهم ومذاكرتهم.. إلخ، ولا يزال هذا المؤلف مخطوطا، ومنه نسخة كاملة في دار الكتب في الإسكندرية، صورت عنها نسخة ونقلت إلى دار الكتب المصرية في «١٩٦» لوحة، كل لوحة فوتوغرافية صفحتان من النسخة الأصلية، وقد باشرت تحقيقه مع بعض إخواني، أرجو أن نوفق لنشره فينتفع المسلمون به.

(٤) انظر: انعقاد المجالس في الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع حيث بسط القول في هذا.

لهذا كان أصحاب الحديث يحرصون على حضور مجالسه، ويحفظون ما يسمعونه، ويذاكرونه.

وقد كان الصحابة رضى الله عنهم يفعلون هذا فى عهد رسول الله ﷺ، فعن أنس بن مالك قال: «كنا نكون عند النبى ﷺ، فنسمع منه الحديث، فإذا قمنا تذاكرناه فيما بيننا حتى نحفظه[١]».

وكان التابعون وأتباعهم يذاكرون حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام جماعات وأفرادا، عن أبى صالح السمان[٢] قال حدثنا ابن عباس يوما بحديث فلم نحفظه، فتذاكرناه بيننا حتى حفظناه[٣]. وعن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن عطاء قال: «كنا نكون عند جابر بن عبد الله فيحدثنا، فإذا خرجنا من عنده تذاكرنا حديثه[٤]»..، وعن مسلم البطين قال: «رأيت أبا يحيى الأعرج ـ وكان عالما بحديث ابن عباس ـ اجتمع هو وسعيد بن جبير فى مسجد الكوفة، فتذاكرا حديث ابن عباس[٥]». وقال مرة عبد الرحمن بن أبى ليلى: «إحياء الحديث مذاكرته، فتذاكروه، فقال عبد الله بن شداد: يرحمك الله! كم من حديث أحييته من صدرى قد كان مات[٦]».

وقد تطول مجالس المذاكرة من أول الليل حتى نداء الفجر [٧]، وكان من طلاب العلم من ينتظر انصرام الليل ليلقى إخوانه فيذاكرهم، وكان إبراهيم النخعى يقول: إنه ليطول علىَّ الليل حتى ألقى أصحابى فأذاكرهم[٨]. ومما يروى عن شعبة بن الحجاج أنه خرج من عند عبد الله بن عون، وقد عقد بيديه جميعًا فكلمه

---

(١) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص٤٦: ب.

(٢) لم يذكر الحاكم لقبه وهو من أصحاب أبى هريرة وقد سمع من ابن عباس وهو ذكوان المدنى. انظر: تهذيب التهذيب ص١٣٢ جـ١٧.

(٣) معرفة علوم الحديث ص ١٤١.

(٤) كتاب العلم لزهير بن حرب ص ٢٩٠: أ.

(٥) الجامع لأخلاق الرواى وآداب السامع ص١٨٤: أ.

(٦) كتاب العلم لزهير بن حرب ص ١٩٠: أ.

(٧) انظر: المرجع السابق ص١٩١: ب.

(٨) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص١٨٢: ب.

بعض إخوانه، فقال: «لا تكلمنى فإنى قد حفظت عن ابن عون عشرة أحاديث أخاف أن أنساها[1]».

هكذا كان يذاكر أصحاب الحديث حديث رسول الله ﷺ، حتى يثبت فى صدورهم لا ينسوه.

وكان بعضهم يتخذ التحديث بما سمع وسيلة إلى حفظه، فإذا لم يجد من يحدثه حدث خادمه أو بنيه، وفى هذا يروى عن الإمام الزهرى أنه كان يبتغى العلم من عروة وغيره، فيأتى جارية له نائمة فيوقظها فيقول لها: حدثنى فلان بكذا، وفلان بكذا فتقول: مالى ولهذا، فيقول: قد علمت أنك لا تنتفعين به، ولكن سمعت الآن، فأردت أن أستذكره [2]، ولا يجد إسماعيل بن رجاء من يذاكر الحديث معه فيجمع غلمان المكاتب ويحدثهم كيلا ينسى حديثه[3].

وكثيراً ما كانت تعقد مجالس المذاكرة وتقام المناظرات بين أصحاب الحديث لتعرف طرقه، ويكشف عن القوى والضعيف منها، وفى هذا يقول يزيد ابن هارون: أدركت الناس يكتبون عن كل ـ من المشايخ الأقوياء والضعفاء ـ فإذا وقعت المناظرة حصلوا[4].

مما سبق يتبين لنا اهتمام الصحابة والتابعين وأتباعهم بالسنة المطهرة، وحرصهم على الحديث النبوى الشريف، فعرفنا كيف كانوا يحدثون طلابهم، وكيف كانوا يعتنون بصغارهم، ويحرصون على تربيتهم التربية الصالحة، على هدى محمد ﷺ، كما عرفنا آدابهم فى الحديث وطلبه، واحترامهم لعلمائهم؛ وحرص الطلاب على دراسة السنة وحفظها ومذاكرتها وتثبيتها فى صدورهم والعمل بها، كل ذلك يعطينا

---

(١) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص٤٧: أ.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبى ص١٤٨ جـ٥.

(٣) انظر: المحدث الفاصل نسخه دمشق ص١٥: ب، وانظر: عيون الأخبار ص١٣٤ جـ٢ وتهذيب التهذيب ص٢٩٦ جـ١.

(٤) المحدث الفاصل ص٨٣: ب، والجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص١٦٧: أ.

صورة حية عن النشاط الحديثى فى ذلك العصر، صورة مخطوطة عن الحركة العلمية القوية التى كانت فى عصر الصحابة والتابعين، تلك الحركة التى كان لها الفضل العظيم فى حفظ السنة.

وإن ما قدمناه لا يعدو الخطوط العريضة لتلك الحركة الواسعة، التى كانت فى الصدر الأول وقد أغفلنا كثيرًا من التفصيلات التى تتعلق بسن السماع وطريقة الرواية والتلقى، وكيفية القراءة على المحدث، وكل ما يتعلق بدرجات تحمل الحديث وأدائه، مما تكفلت بشرحه كتب مصطلح الحديث وعلومه.

وهكذا خرجنا من هذا البحث بخلاصة هامة، هى أن الحديث الشريف لقى عناية وحفظا واهتمامًا عظيما من أبناء ذلك العصر، الذين تولوا نقله بأمانة وإخلاص إلى الجيل الذى تلاهم، ثم أدت الأجيال المتعاقبة هذه الأمانة حتى وصلت إلينا فى أمهات الكتب الصحيحة.

***

obeikandl.com

انتشار الحديث فى عصر الصحابة والتابعين

انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، بعد أن عم الإسلام الجزيرة العربية كلها، وأصبحت هذه البلاد قلعة حصينة للإسلام، وقاعدة تنبعث منها أضواء الهداية فى العالم، وقد عقد رسول الله ﷺ قبل وفاته لواء جيش أسامة لفتح الشام، ولكن المنية اخترمته قبل إنفاذه، وخلفه الصديق فوجه جيش الرسول ﷺ إلى بلاد الشام، واتسعت الفتوحات الإسلامية، وامتدت الدولة الإسلامية حول الجزيرة العربية، ففتحت بلاد الشام كلها (فلسطين والأردن وسوريا ولبنان) والعراق جميعها فى سنة سبع عشرة هجرية[١]، وفتحت مصر سنة عشرين من الهجرة[٢]، ووصل المسلمون إلى ما وراء النهر فى خلافة عثمان بعد أن فتحوا (فارس) سنة إحدى وعشرين، ووصلوا سمرقند سنة ست وخمسين[٣]، وما لبثت الرايات الإسلامية أن خفقت فى ربوع الأندلس غربًا سنة ثلاث وتسعين[٤] وارتفعت بنود الإسلاء وأعلامه على ذرا جبال البرانس[٥] سنة ست وتسعين، وعلى حدود الصين شرقًا سنة ست وتسعين أيضًا[٦].

كان فى طليعة الجيوش الإسلامية صحابة رسول الله ﷺ وكانوا كلما دخلوا بلدًا أقاموا فيه المساجد[٧]، ومكث فيه بعض الصحابة والتابعين يدبرون أموره، وينشرون فيه الإسلام، ويعلمون أبناءه القرآن الكريم وسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وكان الخلفاء يمدون البلاد الجديدة بالعلماء، وقد استوطن كثير من الصحابة رضوان

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى الدكتور حسن إبراهيم حسن ص٢٩٩ جـ١ وما بعدها.

(٢) انظر: المرجع السابق ص٢٣٦ جـ١.

(٣) انظر: المرجع السابق ص٢٧٩ وما بعدها جـ١.

(٤) انظر: المرجع السابق ص٣١٣ جـ١.

(٥) انظر: المرجع السابق ص٣١٨ وما بعدها جـ١.

(٦) انظر: المرجع السابق ص٣٠٥ جـ١.

(٧) انظر: الخطط للمقريزى ص٢٤٦ جـ٢.

الله عليهم تلك الأمصار، يرشدون أهلها، ويعلمون أبناءها. وقد دخل الناس فى دين الله أفواجًا، والتفوا حول أصحاب الرسول ﷺ، ينهلون من الينابيع التى أخذت عن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، وتخرج فى حلقاتهم التابعون الذين حملوا لواء العلم بعدهم، وحفظوا السنة الشريفة، وهكذا أصبحت فى الأقاليم والأمصار الإسلامية مراكز علمية عظيمة، تشع منها أنوار الإسلام وعلومه، إلى جانب مراكز الإشعاع الأولى التى أمدت هذه الأقطار بالأساتذة الأول.

ويجدر بنا أن نذكر لمحة موجزة عن مراكز التعليم هذه فيما يخص بحثنا، فنتناول أهم تلك المراكز العلمية والقائمين عليها فى الأمصار الإسلامية:

١ - المدينة المنورة:

هى دار الهجرة، وحاضرة الدولة الإسلامية، التى آوت الرسول الكريم بعد هجرته، ومعه الصحابة رضوان الله عليهم، وشهدت الجانب التشريعى الأول فى صدر الإسلام، وفى مساجدها التف المسلمون حول محمد عليه الصلاة والسلام، يتلقون القرآن العظيم، ويسمعون الحديث الشريف، وفيها شاهدوا قضاءه وقسمته للغنائم، واستنفاره للجيوش، وموادعته لخصومه، وإليها التجأ المسلمون المهاجرون بدينهم، تحت ضغط قريش والقبائل الأخرى فى أطراف الجزيرة العربية، وتعلقت بها الأنظار، وعقدت عليها الآمال، حتى كان صلح الحديبية ثم الفتح الأعظم، فأصبحت مركز الحجاز السياسى، وعاصمة الدولة الإسلامية إلى أوائل خلافة على رضى الله عنه.

وقد يخطر ببالنا أن المهاجرين عادوا إلى مكة بعد وفاته ﷺ، ولكن التاريخ يؤكد لنا أن الصحابة والخلفاء آثروا أن يجاوروا رسول الله ﷺ[1]، ويقيموا حيث أقام. لذلك نرى فى المدينة كبار الصحابة الذين رسخوا فى العلم، وكانت لهم مكانة عظيمة فى الحديث، ومن هؤلاء أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم

(١) انظر: طبقات ابن سعد ص٣٢٨ جـ٥ وفيه كان يكره المسلمون المهاجرون أن يعود أحدهم إلى مكة بعد أن فارق الرسول ﷺ فى المدينة.

وأبو هريرة وعائشة أم المؤمنين، وعبد الله بن عمر وأبو سعيد الخدرى، وزيد بن ثابت الذى اشتهر بفهم القرآن والحديث والفرائض خاصة، وكانت له مكانة رفيعة عند الخلفاء الراشدين حتى إنهم ما كانوا يقدمون عليه أحدًا فى القضاء أو الفتوى والفرائض والقراءة[1].

وقد تخرج فى المدينة كبار التابعين، ومنهم سعيد بن المسيب، وعروة ابن الزبير، وابن شهاب الزهرى، وعبيد الله بن عتبة بن مسعود، وسالم بن عبد الله بن عمر، ومحمد بن المنكدر وغير هؤلاء ممن كانوا مرجع الأمة فى السنة والقضاء والفتوى.

٢- مكة المكرمة:

لما فتح رسول الله ﷺ مكة، خلف فيها معاذًا يعلم أهلها الحلال والحرام، ويفقههم فى الدين، ويقرئهم القرآن الكريم، وكان معاذ من أفضل شباب الأنصار علمًا وحلمًا وسخاء، شهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، وكان يعدُّ من أعلم الصحابة بالحلال والحرام. قال رسول الله ﷺ فيه: «**معاذ بن جبل أعلم الناس بحرام الله وحلاله**»[2] وقال عليه الصلاة والسلام: «**خذوا القرآن من أربعة من ابن مسعود، وأبى، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبى حذيفة**»[3]. وقد روى عنه عدد كبير من الصحابة، منهم عبد الله بن عباس، الذى كانت له الصدارة بعد أن عاد من البصرة إلى مكة المكرمة، كما كان فى مكة عتاب بن أسيد الذى أمَّره رسول الله ﷺ للصلاة فى أهلها[4]، وأخوه خالد بن أسيد، والحكم بن أبى العاص، وعثمان ابن أبى طلحة وغيرهم[5].

وقد تخرج فى مكة على أيدى الصحابة مجاهد بن جبر، وعطاء ابن أبى رباح، وطاوس بن كيسان، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم[6].

---

(١) انظر: تاريخ دمشق ص٢٨٤ جـ٦ وسير أعلام النبلاء ص٢١٥ جـ١ وتذكره الحفاظ ص٣٠ جـ١.

(٢) سير أعلام النبلاء ص٣٢٠ جـ١.

(٣) سير أعلام النبلاء ص٣١٩ جـ١.

(٤) المرجع السابق ص٣٢١ جـ١.

(٥) انظر: معرفة علوم الحديث ص١٩٢.

(٦) انظر: فجر الإسلام ص١٧٤.

ولابد أن نذكر هنا علو منزلة مكة المكرمة، وأثرها فى تبادل الثقافة ونشر الحديث النبوى فى مواسم الحج، حيث يلتقى فيها المسلمون ويجتمع أكثرهم بصحابة رسول الله ﷺ وبالتابعين، يحملون معهم الكثير الطيب من حديثه عليه الصلاة والسلام إلى بلادهم، ولا تزال لمكة والمدينة هذه المكانة إلى يومنا هذا، وستبقى ما بقى الإسلام إلى يوم الدين.

٣- الكوفة:

لقد نزل فى الكوفة عدد كبير من أصحاب رسول الله ﷺ، فى عهد عمر رضى الله عنه، حين فتحت العراق للمسلمين، وأصبحت الكوفة والبصرة قاعدتى الفتح الإسلامى فى خراسان وفارس والهند، فقد هبط الكوفة ثلاثمائة من أصحاب الشجرة، وسبعون من أهل بدر[١] من أشهرهم على بن أبى طالب، وسعد ابن أبى وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وعبد الله بن مسعود وغيرهم[٢]. وكان لعبد الله بن مسعود أثر كبير فى رفع اسم الكوفة، لما بذله فى سبيل تعليم أبنائها، وقد تخرج فى هذه المدرسة كبار التابعين الذين حفظوا الشريعة وحافظوا على السنة المطهرة، فقد كان فى الكوفة ستون شيخًا من أصحاب عبد الله ابن مسعود، وكان فى بنى ثور الذين نزلوا الكوفة ثلاثون رجلاً، ما فيهم رجل دون الربيع بن خثيم[٣] المشهور بعبادته وورعه وعلو مكانته فى الحديث، وكان فيها كميل بن زيد النخعى، وعامر بن شراحيل الشعبى، وسعيد بن جبير الأسدى، وإبراهيم النخعى، وأبو إسحاق السبيعى، وعبد الملك بن عمير[٤] وغيرهم.

٤- البصرة:

ونزل البصرة من الصحابة رضوان الله عليهم أنس بن مالك، وكان إمام البصرة فى الحديث، وأبو موسى الأشعرى، وعبد الله بن عباس الذى ولى إمرتها لأمير

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد ص٤ جـ٦.

(٢) انظر: معرفة علوم الحديث ص١٩١.

(٣) انظر: طبقات ابن سعد ص٤ جـ٦.

(٤) انظر: معرفة علوم الحديث ص٢٤٣- ٢٤٨.

المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه، ونزل فيها غير هؤلاء عتبة بن غزوان، وعمران بن حصين، وأبو برزة الأسلمى، ومعقل بن يسار، وعبد الرحمن ابن سمرة، وأبو زيد الأنصارى، وعبد الله بن الشخير، والحكم وعثمان ابنا أبى العاص وغيرهم[1].

وأشهر من تخرج فى مدرسة البصرة الحسن البصرى الذى أدرك خمسمائة من الصحابة، ومحمد بن سيرين، وأيوب السختيانى، وبهز بن حكيم القشيرى، ويونس بن عبيد، وخالد بن مهران الحذاء، وعبد الله بن عون، وعاصم ابن سليمان الأحول، وقتادة بن دعامة السدوسى، وهشام بن حسان[2] وغيرهم.

وأما بغداد فلم تشتهر إلا منذ عهد المنصور العباسى.

٥- الشام:

نزل الشام من الصحابة عدد كبير كانوا فى جيش الفتح الإسلامى، وقد استوطن أكثرهم المدن الكبرى بادئ الأمر، ثم ما لبث سكان القرى أن تمسكوا ببعضهم عندما شعروا بالفائدة العلمية الكبرى التى حملها إليهم المسلمون، ومن الصعب حصر عدد الصحابة الذين حلوا فى بلاد الشام، ولكن الوليد بن مسلم يقرب هذا لنا فيقول: «دخلت الشام عشرة آلاف عين رأت رسول الله ﷺ[3]»، وكان يزيد بن أبى سفيان قد كتب إلى عمر بن الخطاب ليعينه بالعلماء، ليفقهوا أهل الشام[4] فأرسل إليه معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبا الدرداء - الذين توزعوا فى بلاد الشام، فأقام عبادة فى حمص، وأبو الدرداء فى دمشق، ومعاذ فى فلسطين، ثم أرسل عمر بعد هؤلاء عبد الرحمن بن غنم[5].

ونشطت الحركة العلمية فى بلاد الشام وخاصة فى دمشق أيام الأمويين، ومازال بها فقهاء ومحدثون ومقرئون[6]، وانتشر فيها العلماء حتى أضحت قرية داريا

---

(١) انظر: معرفة علوم الحديث ص١٩٢.
(٢) انظر: معرفة علوم الحديث ص٢٤٨.
(٣) التاريخ الكبير ص١٦٩ جـ١.
(٤) انظر: غوطة دمشق ص١٣١.
(٥) انظر: فجر الإسلام ص١٨٨، ١٨٩.
(٦) انظر: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص١٣٨.

حاضرة العلم والأدب فى غوطة دمشق، ويقول السمعانى: إنه كان فى داريا جماعة كثيرة من العلماء المحدثين قديمًا وحديثًا، وممن نبغ فيها من الصحابة عبد الرحمن بن يزيد الأزدى الدارانى، ويعد فى الطبقة الثانية من فقهاء الشام[١].

وقد نزل بلاد الشام غير الصحابة المذكورين أبو عبيدة بن الجراح، وبلال ابن رباح، وشرحبيل بن حسنة، وخالد بن الوليد، وعياض بن غنم، والفضل ابن العباس بن عبد المطلب ـ وهو مدفون بالأردن ـ، وعوف بن مالك الأشجعى، والعرباض بن سارية[٢] وغيرهم.

وتخرج على أيدى الصحابة فى هذه المدرسة كبار علماء الشام من التابعين، منهم سالم بن عبد الله المحاربى قاضى دمشق، وأبو إدريس الخولانى (عائذ ابن عبد الله) الذى تولى القضاء بدمشق لمعاوية وابنه يزيد، ومنهم أبو سليمان الدارانى، قاضى دمشق لعمر بن عبد العزيز، وليزيد وهشام ابنى عبد الملك، قضى لهم ثلاثين سنة، ومنهم عمير بن هانئ العنسى الدارانى المحدث[٣].

وتخرج فى هذه المدرسة عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى، الذى يقرن بمالك وأبى حنيفة ويلقب بإمام أهل الشام، ومكحول الدمشقى، وعمر بن عبد العزيز، ورجاء بن حيوة[٤]، وبجير بن سعيد الكلاعى، وثور بن يزيد الكلاعى، وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر[٥] وغيرهم.

٦- مصر:

دخل المسلمون مصر فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، بإمرة عمرو ابن العاص رضى الله عنه، وكان معه من الصحابة عدد كبير منهم الزبير بن العوام، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مُخَلَّد، والمقداد بن الأسود، كانوا على رأس

---

(١) انظر: غوطة دمشق ص١٣٤.

(٢) انظر: معرفة الحديث ص١٩٣.

(٣) انظر: غوطة دمشق ص١٣٤، ١٣٥ وانظر: تاريخ داريا للقاضى عبد الجبار الخولانى ص٢٩- ٧٢.

(٤) انظر: فجر الإسلام ص١٨٩.

(٥) انظر: معرفة الحديث ص٢٤٢.

المدد الذى أرسله عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص[1]، كما كان معه عبد الله ابن عمرو: أحد الصحابة المكثرين عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، والذى كان يدون الحديث بين يدى رسول الله ﷺ، فقد مكث بمصر إلى ما بعد وفاة والده، وعنه روى كثير من محدثيها.

ونزل مصر من الصحابة عقبة بن عامر الجهنى، وخارجة بن حذافة وعبد الله ابن سعد بن أبى سرح، ومحمية بن جزء، وعبد الله بن الحارث بن جزء، وأبو بصرة الغفارى، وأبو سعد الخير، ومعاذ بن أنس الجهنى، ومعاوية ابن حُديج، وزياد بن الحارث الصدائى وغيرهم[2].

وتخرج على أيدى هؤلاء فى هذه المدرسة، يزيد بن أبى حبيب محدث الديار المصرية، وعمر بن الحارث، وخير بن نعيم الحضرمى، وعبد الله بن سليمان الطويل، وعبد الرحمن بن شريح الغافقى، وحيوة بن شريح التجيبى، وغيرهم، وقد كان ليزيد بن أبى حبيب أثر بعيد فى نشر الحديث فى مصر، فقد تتلمذ عليه الليث بن سعد، وعبد الله بن لهيعة[3] اللذان تتلمذ عليهما خلق كثير، وكانا فى عصرهما محدثى الديار المصرية.

٧- المغرب والأندلس:

كان عمرو بن العاص قد وصل إلى برقة وطرابلس سنة (٢١هـ) فى عهد عمر ابن الخطاب، فاستأذن عمرو الخليفة بفتح أفريقية فلم يأذن له، فاستجاب لأمر أمير المؤمنين وعاد إلى مصر، فكان عمرو وأصحابه أول المسلمين الذين دخلوا أطراف المغرب، وعندما تولى عثمان رضى الله عنه الخلافة أذن لأمير مصر عبد الله بن سعد ابن أبى سرح بغزو أفريقية، وكان ذلك سنة (٢٥هـ) ثم أمده بجيش من المدينة فيه جماعة من الصحابة، منهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص،

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام السياسى ص٢٣٦ جـ١.

(٢) انظر: معرفة علوم الحديث ص١٩٣ وانظر: فتوح مصر لابن عبد الحكم ص٢٤٨ - ٣١٩، وانظر: حسن المحاضرة ص٧٢ وما بعدها جـ١.

(٣) انظر: معرفة علوم الحديث ص٢٤١.

وعبد الله بن جعفر، والحسن والحسين، وعبد الله بن الزبير، ولقيهم عقبة بن نافع ببرقة، فتابعوا فتح البلاد[١]، ثم خرج لفتح المغرب معاوية بن حُديج سنة (٣٤ هـ) وكان فى غزاته هذه جماعة من المهاجرين والأنصار[٢]، وقال سليمان بن يسار: (غزونا أفريقة مع ابن حُديج ومعنا من المهاجرين والأنصار بشر كثير)[٣]. ثم ولى عقبة بن نافع المغرب، وكان فى جيشه كثير من الصحابة والتابعين وهو الذى فتح المغرب الأقصى ووطد أركان الإسلام فى شمال أفريقية[٤].

وقد نزل أفريقية من الصحابة غير الذين ذكرناهم مسعود بن الأسود البلوى أحد الصحابة الذين بايعوا الرسول ﷺ تحت الشجرة، والمِسْوَرُ بن مخرمة، والمقداد ابن الأسود الكندى أحد الصحابة السابقين[٥]،وبلال بن حارث بن عاصم المزنى صاحب لواء مزينة يوم الفتح، وجبلة بن عمرو بن ثعلبة أخو أبى مسعود البدرى، كان فاضلاً من فقهاء الصحابة، وسلمة بن الأكوع المشهور وغيرهم كثير[٦].

ودخل أفريقية من التابعين خلق كثير منهم السائب بن عامر بن هشام، ومعبد أخو عبد الله بن عباس. وعبد الرحمن بن الأسود، وعاصم بن عمر بن الخطاب، وعبد الملك بن مروان، وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وسليمان بن يسار فقيه المدينة، وعكرمة مولى ابن عباس[٧]، وأبو منصور والد يزيد بن منصور من كبار التابعين، كما أرسل عمر بن عبد العزيز عشرة من التابعين يفقهون أهل أفريقية منهم: حبان بن أبى جبلة، وإسماعيل بن عبيد الله الأعور، وإسماعيل ابن عبيد[٨]، وعبد الرحمن بن رافع التنوخى الذى ولى قضاء أفريقية، وسعيد

---

(١) انظر: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ص٦٧ - ٧٠ جـ١.

(٢)، (٣) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ص١٩٣.

(٤) انظر: فتوح مصر وأخبارها ص١٩٣ وما بعدها. والاستقصا ص٦٩ - ٧٠ جـ١.

(٥) انظر: الاستقصا ص٢٥ - ٨٠ جـ١.

(٦) انظر فتوح مصر وأخبارها ص٢٤٨ - ٣١٩. وطبقات علماء أفريقية ص١٦، ١٧.

(٧) لم يدخل عكرمة غازيًا، وكان له مجلس فى مؤخر مسجد الجامع فى غربى المنارة، الموضع الذى يسمى بالركيبة انظر: طبقات علماء أفريقية ص١٩.

(٨) هو صاحب سوق مسجد إسماعيل والأحباس، وهو الذي يقال له تاجر الله انظر: طبقات علماء أفريقية ص ٢٠.

ابن مسعود التجيبى وغيرهم[1] ممن ساهموا فى نشر الإسلام وتعليم أبناء البلاد وتفقيههم.

وقد تخرج على أيدى هؤلاء من أهل أفريقية خلق كثير منهم: زياد بن أنعم المعافرى، وعبد الرحمن بن زياد، ويزيد بن أبى منصور، والمغيرة بن أبى بردة، ورفاعة بن رافع، وعمرو بن راشد بن مسلم الكنانى، وعمران بن عبد المعافرى، والمغيرة بن سلمة، ومسلم بن يسار الأفريقى، وغيرهم ممن حمل لواء العلم[2].

وما لبثت مدينة القيروان أن أضحت محط أنظار أهل المغرب فكان فيها سحنون ابن سعيد، وسعيد بن محمد الحداد[3]. كما لمعت قرطبة وأشبيلية وغرناطة وبلنسية، من بلدان الأندلس فى مطلع القرن الثالث الهجرى بيحيى بن يحيى، وابن حبيب، وببقى بن مخلد وغيرهم[4].

٨- اليمن:

كان رسول الله ﷺ قد وجه معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعرى إلى اليمن، كما نزل غيرهما من الصحابة فيها، وتخرج فى اليمن علماء من ألمع التابعين، منهم همام ووهب ابنا منبه، وطاوس وابنه، ثم معمر بن راشد، ثم عبد الرزاق ابن همام وأصحابه[5].

٩- خراسان:

نزل خراسان من الصحابة وتوفى بها بريدة بن حصيب الأسلمى، وهو مدفون بمرو، وأبو برزة الأسلمى، والحكم بن عمرو الغفارى، وعبد الله بن خازم الأسلمى المدفون بنيسابور، وقثم بن العباس المدفون بسمرقند[6]، وفى هذه البلاد ظهر كبار المحدثين.

---

(١) انظر: طبقات علماء أفريقية ص ١٩، ٢٠.

(٢) انظر: طبقات علماء أفريقية ص٢١ - ٢٤.

(٣) انظر: إعلام الموقعين س ٢٧ جـ١.

(٤) انظر: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ١٤٠، وانظر: إعلام الموقعين س٢٧ جـ١.

(٥) انظر: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ١٣٩، ١٤٠.

(٦) انظر: معرفة علوم الحديثة ص ١٩٤.

ففى (بخارى) كان عيسى بن موسى غنجار، وأحمد بن حفص الفقيه، ومحمد ابن سلام البيكندى، وعبد الله بن محمد السندى، ثم أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل البخارى.

وفى (سمرقند) أبو عبد الله بن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى، ثم محمد ابن نصر المروزى.

كما ظهر فى الشاس يما بعد الحسن بن الحاجب والهيثم بن كليب.

وفى (فرياب) تخرج جماعة من العلماء أقدمهم محمد بن يوسف الفريابى صاحب الثورى، ثم القاضى جعفر بن محمد الفريابى صاحب التصانيف المتوفى سنة (٢٢٦هـ)[1].

من كل ما تقدم يتبين لنا أن المسلمين عندما ساروا إلى البلاد المجاورة، لم يسيروا وراء دنيا يصيبونها، ولا خلف تجارة يربحون منها، وإنما انطلقوا ليحرروا الأمم من الظلم والطغيان، وينشروا بين أبناء البلاد الجديدة تعاليم الإسلام، ويأخذوا بأيديهم إلى جادة الصواب، ويفتحوا عيونهم على نور الهداية والحق، وبهذا، تتميز الفتوحات الإسلامية عن جميع الفتوحات التى عرفها التاريخ، إلى جانب ميزات كثيرة يضيق المقام بذكرها، ومن أجل تحقيق تلك الغاية المذكورة، استقر علماء الصحابة فى الأقطار المختلفة، وأمد الخلفاء الأمصار بالعلماء ليسرعوا فى حركة التحرير والهداية والتعليم، وقد التف المسلمون الجدد حول من عندهم من الصحابة.

وكان الصحابة يتفاوتون فى العلم، ولم يكن عند كل واحد منهم جميع ما قاله الرسول ﷺ وشرعه، ولهذا بدأت الرحلات العلمية فى سبيل جمع الحديث وتلقيه، وقد ظهرت هذه أيضًا بين الصحابة، وكثرت الرحلات من التابعين وأتباعهم ليسمعوا ما فاتهم، أو ليتأكدوا مما سمعوا، ولهذا نرى كثيرا من التابعين يقصدون الصحابة فى أقاصى البلاد يسافرون الليالى والأيام فى طلب حديث أو حديثين كما سيظهر لنا بعد قليل. وقد رأينا بروز بعض الصحابة ولمعانهم فى الأقطار المختلفة، فانطبع تلامذتهم بطابعهم وساروا على نهجهم، ثم حلوا محلهم وحملوا لواء العلم ونشره.

---

(١) انظر: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ١٤٣.

الرحلة فى طلب الحديث

كانت الرحلة فى طلب الحديث قائمة فى عهده ﷺ، فكان بعض من يسمع بالرسالة الجديدة، يسافر إلى الرسول عليه الصلاة السلام ليسمع القرآن الكريم، ويتفهم تعاليم الإسلام، ثم ينصرف إلى قومه بعد أن يعلن إسلامه كما فعل ضمام ابن ثعلبة.

فالرحلة فى عهد الرسول كانت عامة من أجل معرفة تعاليم الدين الجديد.

وأما فى عهد الصحابة والتابعين وأتباعهم فقد تمت رحلات كثيرة من العلماء فى طلب الحديث خاصة، وكثيرا ما كانوا يقطعون المسافات الطويلة لسماع حديث أو التأكد من حديث وضبطه، أو للالتقاء بصحابى وملازمته، للأخذ عنه، لأن الصحابة فى عهد التابعين توزعوا فى البلدان ونقلوا فى صدورهم الحديث النبوى، فكان لا بد لمن أراد أن يجمع حديث محمد ﷺ من أن ينتقل من بلد إلى آخر، وراء الصحابة الذين سمعوا منه ورأوه وأخذوا الأحكام عنه، ثم رحل أتباع التابعين إلى التابعين، ولازموهم وأخذوا عنهم، حتى تم جمع الحديث فى مراجعه الكبرى، ومع هذا لم تنقطع رحلة العلماء فى سبيل المذاكرة والعرض على الشيوخ المشهورين.

ومما يروى فى رحلة الصحابة ما حدَّث به عطاء بن أبى رباح قال: (خرج أبو أيوب الأنصارى إلى عقبة بن عامر، يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ، ولم يبق أحد سمعه من رسول الله ﷺ، غيره وغير عقبة، فلما قدم إلى منزل مسلمة بن مخلد الأنصارى -وهو أمير مصر- فأخبره فعجل عليه، فخرج إليه فعانقه، ثم قال له: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ فقال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ، لم يبق أحد سمعه من رسول الله ﷺ غيرى وغير عقبة، فابعث من يدلنى على منزله، قال: فبعث معه من يدله على منزل عقبة، فأخبر عقبة، فعجل فخرج إليه فعانقه، فقال: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ فقال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ

لم يبق أحد سمعه من رسول الله ﷺ غيرى وغيرك فى ستر المؤمن، قال عقبة: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من ستر مؤمنًا فى الدنيا على خزية**[1] **ستره الله يوم القيامة**». فقال له أبو أيوب: صدقت. ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته، فركبها راجعًا إلى المدينة، فما أدركته جائزة مسلمة بن مخلد إلا بعريش مصر[2].

لقد خشى أبو أيوب أن يكون نسى شيئًا من حديث «ستر المؤمن»، فأحب أن يتأكد من ذلك، ويتثبت من صحة ما يحفظه عن الرسول الكريم، فرحل من الحجاز إلى مصر، يقطع الفيافى والقفاز فى سبيل ذلك!!

وعن ابن عقيل أن جابر بن عبد الله حدثه: أنه بلغه حديث عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال: (فابتعت بعيرا، فشددت إليه رحلى شهرًا حتى قدمت الشام، فإذا عبد الله بن أنيس، فبعثت إليه أن جابرا بالباب، فرجع الرسول فقال: جابر بن عبد الله؟ فقلت: نعم فخرج فاعتنقنى. قلت: حديث بلغنى لم أسمعه، خشيت أن أموت أو تموت، قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «**يحشر الله العباد - أو الناس عراةً غرلا**[3] **بهما**» قلنا: ما بهما؟ قال: «**ليس معهم شىء، فيناديهم بصوت يسمعه من بعد -أحسبه قال:- كما يسمعه من قرب: أنا الملك، لا ينبغى لأحد من أهل الجنة يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة، ولا ينبغى لأحد من أهل النار يدخل النار، وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة، قلت: وكيف؟ وإنما نأتى الله عراة بهما؟ قال: «بالحسنات والسيئات»**[4]).

---

(١) الخزية هو الشىء الذى يستحيا منه. وانظر: لسان العرب ص٢٤٧ جـ١٨.

(٢) معرفة علوم الحديث ص٨ وجامع بيان العلم وفضله ص٩٣، ٩٤ جـ١ وذكره زهير بن حرب فى كتابه «العلم» عن رجل ولم يذكر أبا أيوب الأنصارى انظر: ص١٨٧:ب كما ذكر الخطيب مثله فى الجامع لأخلاق الراوى ص١٦٨:ب- ١٦٩:أ.

(٣) غرلا جمع (أغرل) وهو الذى لم يختن.

(٤) الأدب المفرد ص٣٣٧ وجامع بيان العلم وفضله ص٩٣ جـ١ والجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص١٦٨:ب.

وتنشط الرحلات فى طلب الحديث بين التابعين وأتباعهم، حتى لقد كان أحدهم يخرج وما يخرجه إلا حديث عند صحابى يريد أن يسمعه منه لأنه سمعه من رسول الله ﷺ، وفى هذا يروى عن أبى العالية قوله: «كنا نسمع الرواية عن أصحاب رسول الله ﷺ بالبصرة، فلم نرض حتى ركبنا إلى المدينة فسمعناها من أفواههم[١].»

وخرج الشعبى فى ثلاثة أحاديث ذكرت له، فقال لعلى: ألقى رجلا لقى رسول الله ﷺ[٢]، وروى الزهرى عن سعيد بن المسيب قال: إن كنت لأسير ثلاثًا فى الحديث الواحد[٣]. وقام أبو قلابة بالمدينة وليس له بها حاجة إلا رجل عنده حديث واحد ليسمعه منه[٤]. ويروى أن «مسروقا» رحل فى حرف [٥]، ويظهر أن «مسروقا[٦]» كان كثير الترحال، ولذلك قال عامر الشعبى: ما علمت أن أحدًا من الناس كان أطلب لعلم فى أفق من الآفاق من مسروق[٧]. ويروى عن الشعبى أنه حدث بحديث ثم قال لمن حدثه: (أعطيتكه بغير شيء، وإن كان الراكب ليركب إلى المدينة فيما دونه[٨]).

وكان الصحابة الكرام يشجعون على طلب العلم، وعلى الرحلة من أجله، من هذا ما روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله تعالى منى تبلغه الإبل لأتيته[٩]» وكانوا يرحبون بطلاب العلم كما سبق أن ذكرنا،

---

(١) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص١٦٨: ب والكفاية ص٤٠٢.

(٢) انظر: المحدث الفاصل ص٢٩: أ.

(٣) انظر: المحدث الفاصل ص٢٨: ب والجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص١٦٩: ب، وتذكرة الحفاظ ص٥٢ جـ١ وجامع بيان العلم وفضله ص٩٤ جـ١.

(٤) انظر: المحدث الفاصل ص٢٨: ب.

(٥) جامع بيان العلم وفضله ص٩٤ جـ١.

(٦) ومسروق هو ابن الأجدع الهمدانى أبو عائشة تابعى ثقة يمنى الأصل، رحل إلى المدينة أيام أبى بكر ثم سكن الكوفة وشهد حروب على وكان يفتى توفى سنة (٦٢) هـ انظر: تهذيب التهذيب ١٠٩٢ جـ١٠.

(٧) جامع بيان العلم وفضله ص٩٤ جـ١ والمحدث الفاصل ص٢٩: أ.

(٨) جامع بيان العلم وفضله ص٩٤ جـ١، ومعرفة علوم الحديث: ٧ وقد أخرج الشيخان نحوه انظر: صحيح البخارى بحاشية السندى ص١٧١ جـ٢ وانظر: الأدب المفرد ص٨١، وصحيح مسلم ص١٣٥ جـ١، كما أخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجه.

(٩) الكفاية ص٤٠٢.

وكل هذا حبب إلى التابعين الرحلة، حتى إن عامرا الشعبى قال: «لو أن رجلا سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن، ، ليسمع كلمة حكمة ما رأيت أن سفره ضاع[1]»، وفعلا كانوا يرحلون إلى الصحابة ولا يرون أن سفرهم قد ضاع.

عن كثير بن قيس قال: كنت جالسا عند أبى الدرداء فى مسجد دمشق، فأتاه رجل، فقال: يا أبا الدرداء! أتيتك من المدينة، مدينة رسول الله ﷺ لحديث بلغنى أنك تحدث به عن النبى ﷺ قال: فما جاء بك تجارة؟ قال: لا. قال: ولا جاء بك غيره؟ قال: لا. قال: فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن طالب العلم يستغفر له من فى السماء والأرض، حتى الحيتان فى الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب إن العلماء ورثة الأنبياء إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر**[2]».

وعن زر بن حبيش[3]، قال: أتيت صفوان بن عسال المرادى، فقال: ما جاء بك؟ قلت: أنيط العلم. قال: فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من خارج خرج من بيته فى طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها، رضا بما يصنع**[4]».

وأخبار العلماء ورحلاتهم كثيرة يضيق المقام بذكرها، ويكفينا أن نذكر شيئًا منها، فقد رحل ابن شهاب إلى الشام ليلقى عطاء بن يزيد وابن محيريز وابن حيوة؛ ورحل يحيى بن أبى كثير إلى المدينة للقاء من بها من أولاد الصحابة، ورحل محمد بن سيرين إلى الكوفة فلقى بها عبيدة وعلقمة وعبد الرحمن ابن أبى ليلى، ورحل الأوزاعى إلى يحيى بن أبى كثير باليمامة ودخل البصرة، ورحل سفيان الثورى إلى اليمن ثم دخل البصرة، ورحل عيسى بن يونس إلى الأوزاعى

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ص٩٥ جـ١، والرحلة الحجازية والرياض الأنسية ص١٤.

(٢) سنن البيهقى ص٨١ جـ١، والجرح والتعديل ص١٢ جـ١ وقد رواه ابن ماجه فى سننه ص٩١ جـ١.

(٣) زر بزاى مكسورة فراء مشددة بوزن هر.

(٤) سنن ابن ماجه ص٨٢ حديث ٢٢٦ جـ١ طبعة عيسى البابى الحلبى وانظر: مجمع الزوائد ص١٣١ جـ١، والجرح والتعديل ص١٣ جـ١ وأنيط العلم أى أطلبه وأستخرجه من عند أهله.

بالشام. . . ورحل شعيب بن أبى حمزة إلى الزهرى وهو يومئذ بالشام. وأما رحلة العلماء من بلد إلى بلد فى الإقليم الواحد، فكثيرة كثرة تفوق الحصر[1].

وكان لرحلات العلماء فى طلب الحديث أثر بعيد فى انتشار السنة، فمما لا شك فيه أن الراوى يرى من يروى عنه، ويقف على سيرته، ويسأل أهل بلده عنه، وكثيراً ما كانوا يتشددون فى السؤال عن الراوى، حتى يقال لهم أتريدون أن تزوجوه؟

كذلك كان للرحلات فائدة عظيمة فى معرفة طرق كثيرة للحديث الواحد فقد يسمع الراوى من علماء المصر الذى رحل إليه زيادات لم يسمعها من علماء مصره وكثيراً ما يجد عندهم ما لم يجده عند شيوخه، وقد تقع مناظرات بين علماء الأمصار، تعارض فيها طرق الحديث الواحد؛ فيحصل فيها القوى ويعرف الضعيف، ويزداد طلاب العلم معرفة لأسباب ورود الأحاديث، حين يلقون من سمع من رسول الله ﷺ، أو أفتاه أو قضى له.

ويكفى الرحلة فائدة أن تساعد على نشر الحديث وجمعه، وتمحيصه والتثبت فيه، فكان لرحلات الصحابة والتابعين وأتباعهم أثر جليل فى المحافظة على السنة وجمعها وتدلنا تراجم الرواة على الصعاب التى كانوا يستعذبونها فى سبيل حفظ السنة، وسماع أحاديث رسول الله ﷺ من منابعها الصحيحة، ويكفينا أن نقرأ فى ترجمة أحدهم، هو فلان اليمنى، ثم المكى، ثم المدنى، ثم الشامى، ثم الكوفى، ثم البصرى، ثم المصرى، لنعرف مقدار ما قاسى فى قطع الفيافى والبعد عن الأهل والأوطان، وما تحمله من مشاق حتى أصبح من رجال الحديث فى عصره. فلم يصلنا الحديث النبوى فى مصنفاته وكتبه، مرتبًا بأسانيده، وعلى أبواب جامعة كل منها فى موضوع خاص، إلا بعد أن خدمه الصحابة، والتابعون وأتباعهم، والعلماء من بعدهم ووقفوا عليه حياتهم، فجزاهم الله عنا خير الجزاء، وأسكنهم فسيح جنانه.

---

(١) انظر: المحدث الفاصل ص٣١:ب و ٣٢:ب وراجع جامع بيان العلم ص٩٤، ٩٥ جـ١.

لا نشك فى أن الحديث النبوى قد انتشر جنبًا إلى جنب مع القرآن الكريم، ووصل إلى الأقاليم الإسلامية الجديدة، ولا نشك فى أن العلم لم يبق مقصوراً على مكة والمدينة، بل تعددت مراكزه ومجالسه، وشهدت الأمصار البعيدة ما شهدته حواضر العالم الإسلامى، من نشاط علمى على يدى الصحابة رضوان الله عليهم، ويمكننا أن نتصور مدارس متنقلة فى مختلف الأمصار، روادها الصحابة وكبار التابعين، إذ كان يكفى لأهل خراسان مثلا أن يحل بينهم صحابى حتى يسرعوا إليه، ويلتفوا حوله ويسألوه ويستقرئوه القرآن ويسمعوا منه حديث الرسول ﷺ.

هذا جانب عظيم يصور لنا انتشار السنة فى أبعد حدود الدولة الإسلامية ولكن لا بد لنا من أن نقول الحق وإن كان مراً، فإن بعض من دخل الإسلام ـ إثر الفتح ـ إنما دخله نفاقًا، أو اعتنقه على أنقاض عقائد فاسدة بقيت رواسبها فى نفسه، فجعلته ينتهز أية فرصة للطعن فى الدين الجديد، الذى قوض أمجاد آبائه، وأطاح بمصالحه الشخصية، ومنهم من كان متعصبا لقومه وبلده. وهناك بعض الخلافات السياسية التى حدثت عقب الفتنة وظهور الفرق والأحزاب، كل هذا كان عاملا فى ظهور الوضع فى الحديث الشريف إلى جانب انتشاره فى الآفاق. وهذا ما سندرسه فى الباب التالى ونفصل أسبابه ونبين جهود الصحابة والتابعين وأتباعهم، والعلماء من بعدهم، فى سبيل المحافظة على السنة، وصيانتها من عبث أعداء الدين.

***